أنور الجندي

قراءة في ميراث النبوة

إطار إسلامي للصحوة الإسلامية

لا إله إلا الله
محمد رسول الله

دار الفضيلة

قراءة في ميراث النبوة



أنور الجندي

دار الفضيلة


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إطار إسلامى للصحوة الإسلامية

قال رسول الله ﷺ :

« يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » (١).

(١) الصحوة ليست ظاهرة طارئة ، بل هى أعمق وأشمل من مجرد ظاهرة .

ومن دلائل أصالة هذه الصحوة أنها مستمرة ؛ ذلك أن (رسالة الإسلام) مدعوة لتنقذ العالم كرة أخرى بعد أن سقط فى براثن الوثنية والمادية والانهيار الخلقى ، وأن الأزمة تولد الهمة ، ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق ، ولا يظهر فضل الفجر إلا بعد الظلام الحالك .

وإذا ثابر أهل الحق على حقهم ، ولم يتركوا الميدان لغيرهم كان النصر فى النهاية حليفهم ، كما قال جمال الدين الأفغانى : وأبلغ ماحملت دعوة الإسلام إلى العالمين التمسك بالقرآن الكريم كأساس موجود بين المسلمين وإلغاء العصبية المذهبية ، وقد أكد علماء الإسلام فى كل عصر أن باب الاجتهاد مفتوح ، وأن القرآن يشيد بالمخترعات والعلوم الحديثة ، وأن دعوته إلى وسطية بين طرفى الجمود والتقليد .

والقرآن الكريم يتحدث عن (الدفع) أى الحراك الاجتماعى بين الأمم والمذاهب باعتباره سنة من سنن الله تبارك وتعالى فى الاجتماع البشرى ، وقانوناً من قوانين هذه الحياة .

قال تعالى : ﴿ **ولولا دفعُ الله الناس بعضَهُم ببعض لفسدت الأرضُ** ﴾ [البقرة ، الآية ٢٥١] كما يتحدث عن إرادة التغيير ، وأن الله تبارك وتعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وقد جمع الإسلام بين القيم المتكاملة التى تمثل « وسطية الإسلام » : الروح والمادة ، القلب والعقل ، العروبة والإسلام ، الدنيا والآخرة .

أما منهج المعرفة الإسلامى فهو جماع بين العقل والوحى .

---

(١) انظر كنز العمال (٢٨٩١٨) .

كما يقرر الإسلام « أخلاقية المجتمع » والأخلاق جزء من ثوابت العقيدة ، ويدعو الإسلام إلى ثبات الذاتية الخاصة بحيث لاينصهر فى فكر آخر مع قبول مايوجد فى الحضارات ، مما يؤكد حاجة الأمم إلى اقتباس الأساليب والوسائل دون الأصول .

كما يقرر الإسلام المسئولية الفردية إلى جوار الثبات الأخلاقى .

كما يقرر الإسلام مفهوم الثوابت والمتغيرات .

كما أقر الإسلام الحرية المنضبطة ، ورفض الحرية المطلقة .

★★★

وقد حمل العرب رسالة الإسلام وتبليغها للعالمين ؛ وكان العرب بالإسلام سادة العالم وقادة الأمم ؛ وكان عليهم أن يحملوا أمانة الدعوة والاعتزاز بالانتساب إلى الإسلام دون أن يفرضوا أنفسهم على الناس ، بل كان عليهم أن يكونوا مبلغين صادقين .

★★★

(٢) والتغيير فريضة شرعية لحماية حياة المسلمين من الجمود أو التخلف ، وتتمثل فى عدة مواضع :

(أ) ضرورة العودة إلى الله تبارك وتعالى .

(ب) تحرير الولاء لله تبارك وتعالى ولرسوله وللمؤمنين .

(ج) الإعداد الروحى يقوم على تربية الأمة على مفهوم الإسلام الشامل .

(د) بناء إنسان العقيدة وإحياء فريضة الجهاد .

(هـ) إعداد العدة المانعة وتحصين الحدود والثغور .

﴿ **وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباطِ الخيل تُرهبونَ به عدوَّ الله وَعدوكُم** ﴾ [سورة الأنفال ، الآية: ٦٠] .

(٣) وهذا يتطلب الاهتمام بالتربية الإسلامية لأبناء المسلمين بمفهوم الإسلام الجامع (تربية العقل والقلب والجسم) وتقوم التربية الإسلامية المستمدة من القرآن والسنة على دعائم الإيمان فى النفس والضمير ، وإيجاد الأجيال القادمة وتحصين كيانهم النفسى والاجتماعى .

ولما كان ~~الإسلام~~ الله تعالى لاينصر أمة تعطل شريعته وحدوده ، ولا ينصر أمة تعطل الفرائض ،

ولا ينصر أمة تحل ما حرم الله ، ولا ينصر أمة يكون نظامها وتعليمها فى أيدى أعـدائها ، ولا بد من فتـح باب الاجتهاد أمام المستجدات فى المجتمع ، وفتح باب الجهاد أمام المتطوعين لتحرير القـدس .

ومن هنا تظهر ضرورة إقامة الوحدة الجامعة .

وعلى الفكر الإسلامى أن يتوحد مستعلياً على الإقليمية والطائفية والمـذهبية ، وأن ينفض عن كاهله صيغ التبرير والتملق التى زادته رهقاً ، وصرفتـه عن رسالته الحقيقية .

(٤) ولنحذر الشباك المطروحة للصيد المتمثلة فى حركات الماسونية والروتارى وغيرها .

هذه المنظمات قامت لإيجاد الانشقاق والانحلال بين شعوب الأمة الإسلامية .

وعلينا أن نحذر أيديولوجيات الرأسمالية والليبرالية وفكرة القومية والإقليمية والطبقية والصراع الطائفى .

وعلينا أن نحذر نظريات الفيض والإشراق والحلول والاتحاد ودعاوى الروحية الحديثة وتحضير الأرواح .

ومذاهب البهائية والفينيقية والفرعونية وأن نعمل على تثبيت الإطار المعرفى الجامع بين العقل والوحى معاً كمصدرين متكاملين للمعرفة الإنسانية .

★★★

وعلينا المحافظة على الذاتية الخاصة وخصوصية الانتماء ، فنحن عالم مختلف تمام الاختلاف عن عالم الغرب بعيد عن وثنيـة أرسـطو فى الغرب ووثنيـة بوذا فى الشرق ، ولا يمكن أن ننصهر فى إحداهما .

قـال رسـول الله ﷺ : « إن لكـل أمـة رهبـانيـة ، ورهبـانيـة أمتى الربـاط فى نحـر العدو »[1] .

(٥) خصائص الحركة الإسلامية :

١ - العالمية والإنسانية : فالعلم فى الإسلام حق مشاع وثروة مشتركة لجميع الأمم والشعوب والعناصر والأجناس .

---

(١) أخرجه الطبرانى (٨ / ١٩٨) .

٢ – **الشعبية** : شعبية هذه الحركة الوحدة الإسلامية التى قامت على مجهودات شعبية وعلى تقدير علماء المسلمين للعلم .

٣ – **الحركة** : وتتجلى فى المسافات للحصول على العلم والتوسع والاختصاص فى الدراسة .

٤ – **الصورة والعمل** : فقد امتاز علماء المسلمين بعلو الهمة أو الشهادة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكلمات الحق عند سلطان جائر ، والصمود فى وجه الأباطيل .

٥ – التركيز على العلم النافع الحامل للهداية ، والكامل للنجاة .

(٦) الجمع بين الروح والعقل :

(ا) جمع الإسلام بين السماحة والوسطية ، والاعتدال بين الفرد والجماعة ، ويستمد أصوله من الوحى ، فيعطى العقل الإسلامى مساحة للفهم واتخاذ القرار وقد جاء عطاء الإسلام بعيداً عن التعصب والتشدد .

(ب) وحدة الصف وفق منهج الشريعة الإسلامية السمحاء ، وبعيداً عن المذهبية والحزبية والتفرقة .

(ج) الخط البيانى الإسلامى الآن يرتفع فى اتجاه القمة .

معالم الثقافة الإسلامية :

١ – الطابع المميز لهذه الثقافة والخصائص الجوهرية :

(أ) القرآن هو المصدر الأول لمقومات الأصالة .

(ب) تحديد المنابع الأصيلة للثقافة .

(ج) يربط القرآن الكريم دائماً بين المعرفة والثقافة والنتائج العملية المترتبة عليها من حيث النفع أو الضر .

(د) يربى القرآن العقل والبصيرة على الوحدة من خلال الكثرة وتلمس الرباط الموحد الذى ينظم ما يبدو متنافراً متبايناً .

(هـ) ربى القرآن المسلمين على ملكة النقد النزيه مع الدقة والأمانة فى نقل أو رواية أقوال الغير ، وضرورة التفرقة الحاسمة بين العلم والظن .

(و) الربط بين جانبى الفكر والوجدان مع تأكيد أهمية الربط بين النظرية والتطبيق .

(ز) أن العقيدة الإسلامية النقية لم تكن يوماً حجر عثرة فى سبيل تطور الحياة الإسلامية .

وأن عقيدة القضاء والقدر لاتؤدى إلى الجموّد أو الموقف السلبى . (محمد كمال جعفر) من قواعد الإسلام الثابتة : عدم التفريط فى الثوابت فى سبيل تحقيق التقدم .

(ح) الاختلاف فى الفكر الإسلامى يتم فى دائرة الوحدة : فهو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد .

(ط) الثقافة الإسلامية لها خصوصيتها الخاصة بها والمرتبطة بالعقيدة والتاريخ واللغة .

ومن هنا فإن علينا :

– تحرير المناهج التعليمية والثقافية من التبعية .

– حماية وجودنا من نظريات الفصل بين الماضى والحاضر أو احتقار الذات، أو تفسير التاريخ تفسيراً مادياً ، أو ماركسيًا ، أو النيل من بطولات المسلمين أو امتهان الصحابة بتحويلهم إلى سياسيين محترفين .

(ى) قيم الأخلاق : يرى كثير من علماء الأخلاق أن قيم الأخلاق عامة ولازمة للإنسان فى كل مجتمع وفى كل عصر ، وأنها قيم ثابتة لا تتغير بتغير الزمان أو البيئات .

وهى قيم عامة وإنسانية ، ولا تتعارض مع العقل ، وهى جزء من الدين السماوى المنزل .

وتتوخى قيم الأخلاق كمال الفرد وصلاح المجتمع .

وقد جعل الإسلام العقل وسيلة لفهم كل عقيدة سليمة وتحقيق كل سلوك كريم .

والإسلام لايرد قيم الأخلاق والحسن والقبيح فى الأفعال الإنسانية إلى العقل ؛ لأن العقل الإنسانى ليس بمأمن من العى والحصر ولأنه لايكون فى كل حالاته بمعزل عن الهوى أو العاطفة تماماً ؛ وبذلك ليس ثمة ما يضمن لنا صدق أحكامه حيث تفضل لنا نوعاً من السلوك على نوع آخر .

والإنسان حين يقدم على السلوك يكون أكثر إسراعاً فى اتباع مافيه هوى نفسه ثم يبرر لنفسه هذا السلوك .

يقول ابن عطاء : « إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه ، فإنه لايثقل على النفس إلا ماكان حقاً » .

وقيم الأخلاق فى الإسلام وسائر الديانات السماوية تخاطب الفطرة والوجدان ، وهى أيسر من أخلاق الفلاسفة .

ومن خطأ ظن أصحاب الفلسفات المادية أن القيم الدينية تعوق التقدم الحضارى والمجتمع .

وحين يستبطن الإنسان ذاته يشعر بأن فيه معنى زائداً على المادة .

(دكتور / التفتازانى) .

(ك) حضارة الإسلام حضارة أخلاقية تجمع بين (الفكر والعمل) ولا تقدس الفكر وترفعه فوق العمل كما كان الشأن فى الحضارة اليونانية القديمة ، كما أنها تجمع بين (المادة والروح) وترى أن المجتمع لا يهمل الحوافز الروحية إلى جوار الحوافز المادية فى عملية التطور ، ولذلك كانت الأمة الإسلامية الآخذة بهذه الحضارة أمة وسطاً .

﴿ **وكذلكَ جعلناكُم أمةً وَسَطاً** ﴾ . [سورة البقرة ، الآية : ١٤٣] .

﴿ **وابتغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبكَ من الدنيا** ﴾ .

[سورة القصص ، الآية : ٧٧]

ولا يعنى الإسلام بالقيم المجردة ؛ لأنه دين عمل يحكم على الإنسان بما يتمثل فى سلوكه العلمى من القيم .﴿ **وقلِ اعملوا** ﴾ [سورة التوبة ، الآية ١٠٥] .

أهم هذه القيم :

١ - **التوحيد** : فقد حارب الإسلام الشرك والوثنية .

٢ - **العلم** : لايقتصر العلم فى الإسلام على العلم بالأحكام الشرعية ، وإنما يمتد ليشمل كل علم يدفع الجهل ، واعتبر الفقهاء العلوم الدنيوية النافعة فروض كفاية ؛ وكذلك الصناعات والمهن .

٣ - **حرية الفكر** : وهى قيمة ذات فعالية إيمانية فى التطور الحضارى مضادة لقيمة أخرى سلبية ، وهى التقليد أو الجمود الفكرى ، ونهى الإسلام عن التقليد للقيم الضارة .

وقد حث القرآن العقول على البحث فى الكون والبحث فى النفس : ﴿ **سنُريهم آياتِنا فى الآفاقِ وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ [سورة فصلت ، الآية : ٥٣] .

ويدعو الإسلام إلى الاستفادة من تجارب الأمم السابقة .

٤ – **قيمة العمل** : شرط العمل أن يكون نافعاً للفرد والمجموع .

٥ – **الأمانة وإتقان العمل** .

٦ – **المساواة بين الناس بلا فروق** بين عربى أو أعجمى إلا بالتقوى .

وحارب الإسلام كل ألوان التفرقة العنصرية ونزعات العداء والعصبية ، ورفع من شأن المرأة ، واعترف لها بشخصيتها المدنية وأباح لها التصرف فى أموالها .

٧ – **دعا الإسلام إلى التعاون بين أفراد المجتمع** . والإسلام لايفرق بين الفردية المطلقة ولا الطبقية ، إنما ينمي فى الإنسان شعور الانتماء إلى الجماعة ، ويعارض كل صور استغلال الإنسان لأخيه الإنسان .

٨ – **قيمة العدل** : ألا يميل الإنسان إلى هوى فى نفسه يوقعه فى ظلم الآخرين ، العدل الاجتماعى الذى يتجلى فى أن يجد كل فرد فى المجتمع كفايته .

٩ – **قيمة الشورى** : أساس بناء النظام السياسى الإسلامى .

١٠ – **الحضـــارة** : نعنى بالحضارة مجموع الفكر والعمل فليست الحضارة فى التقدم المادى وحده ، ولكنها فى الارتقاء الإنسانى الجامع ، فالتصور للحضارة على أنها مادة فقط قاصر كل القصور ولابد أن ترتبط الحضارة بالقيم الخلقية .

ولكل حضارة قيم : وارتقاء حضارة من الحضارات معناها أن لدى أصحابها قيماً معينة آمنوا بها وعملوا على تحقيقها ، ومن الضرورى تأ كيد دور الإنسان فى بناء الحضارة .

وعقل الإنسان وشعوره ووجدانه هى جميعاً وراء كل أدب وفن .

أما وسائل الإنتاج فهى ليست إلا عاملاً من بين عوامل كثيرة فى بناء الحضارة .

والفكر غير خاضع لقوانين المادة .

★ ★ ★

مَدخَل

يقول جمال الدين الأفغانى مقدماً القرآن الكريم للأمة الإسلامية قبل مائة عام كمنهج ربانى أصيل يستطيع أن يحقق لهذه الأمة وللإنسانية جميعاً أملها فى العدل والإيمان وتطبيق شريعة الله ومنهجه بالعودة إليه والتماس نوره : « مادام القرآن الكريم يتلى بين المسلمين ، وهو كتابهم المنزل ، وأملهم الحق ، وهو القائم عليهم بأمرهم بحماية حوزتهم ، والدفاع عن ولايتهم ، ومغالبة المعتدين ، وطلب المنفعة من كل سبيل ، فإننا لانرتاب إلى عودتهم إلى مثل نشأتهم ونهوضهم إلى مقاضاة الزمان ما سلب منهم ، فيقدمون على من سواهم فيدفعون الملاحة والمنازلة والمصاولة حفظاً لحقوقهم » .

« إن القرآن حى لايموت ، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ، ومن أصيب من مقته فهو ممقوت ، كتاب الله لم ينسخ ، فارجعوا إليه وحكموه فى أحوالكم وطباعكم » .

« إن الحركة الدينية بالدعوة إلى القرآن كناية عن الاهتمام بقلع مارسخ فى عقول العوام ومعظم الخواص فى فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها مثل حملهم نصوص القضاء والقدر على معنى يوجب عليهم أن يتحركوا إلى طلب مجد أو تخلص من ذل » .

« لابد إذن من بعث القرآن وبعث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى .» .

« إن القرآن وحده سبب الهداية والعبرة فى الدعاية وما تراكم عليه وتجمع حوله من آراء الرجال واستنباطاتهم ونظرياتهم » .

★ ★ ★

الباب الأول
الإسلام وقضية الإنسان

الإنسان : الفرد والجماعة والمجتمع والحضارة كيف رسم الإسلام حقوق الإنسان ومسئولياته ، وكيف أخرج الإسلام الإنسان من العبودية التى كانت ظاهرة طبيعية لإمبراطوريات اليونان والرومان والفرس والفراعنة ، وكيف كانت العبودية أساس هذه الحضارات ، بينما ألغى الإسلام الرق وأقام للإنسان قيماً أساسية تحفظ له وجوده وكيانه .

الإسلام يقرر أن القضية الكبرى فى المجتمع البشرى هى قضية الإنسان وهى القضية التى جاءت الأديان لترسم للإنسان الطريق فيها ، وهى فى نفس الوقت موضع الخلاف الواسع والعميق بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى .

فالفكر الإسلامى يقوم على دعائم الدين الخاتم (الإسلام) الذى جاء بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع (روح ومادة) بينما قام الفكر الغربى على إعلاء الإنسان وتكوينه ماديّا استمداداً من عدة عناصر : هى الفلسفة اليونانية المادية وشذرات من المسيحية نقلت إليها ، وليس الدين الحق - مادخل الفكر الغربى من معطيات الإسلام وهى فى الأغلب : « العلوم التجريبية » التى قامت على أساسها الحضارة المادية .

أما الإسلام فإنه يقرر عدة أسس راسخة :

أولاً : الإنسان خلق لحمل أمانة الاستخلاف فى الأرض من منطلق إقامة المجتمع الربانى على الأرض .

ثانيا : أمد الله تبارك وتعالى الإنسان بمفاتيح العمران ووسائط السعى من خلال

مسئوليته الفردية والتزامه الأخلاقى والإيمان بالغيب والبعث والجزاء الأخروى .

ثالثاً : من هنا كان لابد له من الانطلاق إلى العمل من نقطة البدء الحقيقية ، بالإيمان بالله تبارك وتعالى خالقاً ورازقاً .

﴿ **إياك نعبدُ وإياك نستعينُ** ﴾ [سورة الفاتحة ، الآية : ٥] .

بمعنى أن الأمور تبدأ من الله تبارك وتعالى وتنتهى إليه سبحانه :

رابعاً : قدم القرآن منهجاً كاملاً – وقدم عالم الغيب (ماوراء المادة) الميتافيزيقا ، وهى تتقرر من خلال الإيمان بالله الواحد الأحد ، وبالرسالة الخاتمة والوحى والغيب .



من خلال هذا المنهج يتحدد موقف المسلم من الفكر الغربى الذى يقوم على انشطارية الحياة من حيث إنكار الغيب والبعث ، وإحلال مصطلح الطبيعة بدلاً من الألوهية ، واعتبار المسئولية هى مسئولية المجتمع لا الفرد ، وتقرر مذهب النسبية الأخلاقية المرتبطة بالعصور والبيئات ، بينما يقدم الإسلام : ثبات القيم الأخلاقية واستمرارها والخضوع لها .



وهذا الطرح يوصلنا إلى الحقيقة المؤكدة وهى :

« تكامل الإسلام »

فقد أسقط الإسلام الحاجز بين الحياتين : حياة الدنيا وحياة الآخرة ، وأنهى هذا الصراع الدامى بينهما كأنهما عدوتان لدودتان . قال الله تعالى : ﴿ **وابتغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرةَ ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾ [سورة القصص ، الآية : ٧٧] .

وأسقط الإسلام الحاجز بين الدين والعلم منذ البداية ، والإسلام يعلن احتفاءه بالعلم .

وقد أسقط الإسلام الحاجز بين الروح والجسد ، فقد كانوا يقولون إن هذا البدن هيكل الشيطان .

بينما يقول الإسلام : (إن لبدنك عليك حقاً)[1] . (فتحى رضوان) .

★★★

كذلك فقد خلق الإسلام الشخصية الإنسانية المتوازنة التى لا إفراط فيها ، ولا تفريط ، والتى توازن بين حاجات الجسد . وحاجات الروح : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾ [سورة القصص ، الآية : ٧٧] .

★★★

« تميز الإسلام » حقيقة قيمية أساسية لها عدة عناصر ، فقد ألغى الإسلام فكرة الإباحية التى كانت قائمة فى المجتمعات القديمة المعاصرة والنابعة من فكرة (فصل الدين عن الدنيا) بحيث يكون هناك معياران للسلوك: واحد خاص والآخر عام ، فأصبح الفرد يحكم ما رسمه الدين فى نفسه عن طريق الشعائر والمعاصرة صورة للمجتمع تحمل فى ضميره كل القيم الاجتماعية التى تحض على التكامل والتعاون .

★★★

وقد رفض الإسلام (مادية اليهود) و (رهبانية النصارى) وأمر بالتوسط ﴿ **قل أمر ربى بالقسط** ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٢٩] .

﴿ **يا بنى آدم خذُوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تُسرفوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حرّم زينةَ الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامةِ** ﴾ [سورة الأعراف ، الآيتان : ٣١ ، ٣٢] .

فالحياة : الإسلام أسلوب حياة يمتزج فيه الدينى بالدنيوى ، ويختلط المادى بالمعنوى اختلاط الروح بالجسد ، فينصهر الجانبان فى وحدة عضوية لا ينفصل فيها أحدهما عن الآخر .

وليس للمسلم فلسفة أساسية من صنع فكره كإنسان وإنما مرده إلى وحى الله تبارك وتعالى ، وسنة الرسول ﷺ ، وما وقع عليه الإجماع .

والإنسان المسلم على خلاف الإنسان الآخر ، فهو لا ينوء تحت وطأة الخطيئة الأصلية التى تحكم عليه وعلى نفسه بالسوء والفساد ، والمثل الأعلى الثقافى عند المسلمين هو أن

---

(١) أخرجة الترمذى (٧٤٨) .

يجعل عبادة الله مطمح نظره ، بينما كان المثل الأعلى عند الإغريق أن يجعل الدولة نصب عينيه ، والحرية فى مفهوم الإسـلام تقوم على التحرر من قيد الوثنيـة والجهل والتقليد .

والحياة فى مفهوم الإسلام ثنائية تقوم على التوازن بين الـمادة والروح ، فإذا طغت إحـداهما على الأخـرى اضطربت وانحرفت ، والقـلق الذى يشمل المجتمعات غير الإسـلامية لا سبب له إلا فقدان هذا التوازن .

ولما كانت الحياة على الأرض محكومة بنواميس ثابتة تسيرها قوة علوية ، فإن التوازن يحفظها من التفكك والانهيار .

ويرفض الإسلام المغالاة فى المحافظة وفى التجديد ، فكلاهما يخرجه عن الفطرة وقوانين الحياة الطبيعية التى تجمع بين القديم والجديد والماضى والحاضر .

ويرفض الإسلام المغالاة ؛ فالقديم والجديد عنصران مهمان من عناصر الحياة ، وهما متلازمان وضروريان ، ويقرر الإسلام التوازن بين القديم والحديث .

ولابد من تطويع الدنيا لأمر الله ونصرة تعاليمه ، ومقاومة أكبر علل الحضارة الحديثة : مما ينكره الإسلام وهو عبادة الحياة ولا يزال الجسم الإسلامى يرفض العضو الغريب ، ولا يزال الكيان الإسلامى يرفض الجسم الغريب .

★ ★ ★

والمسلم لم يُخلق ليندفع فى التيار ، ويساير الركب البشرى حيث سار ، بل خُلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ، ويفرض على البشرية اتجاهه ، ويملى عليه إرادته (إقبال)

★ ★ ★

وقد رفض الإسلام التطور على حساب الأصالة والقيم الأساسية ، كما رفض تضحية القيم العليا فى سبيل التقدم المادى ، ولم يخضع الإسلام مفاهيمه للحضارات وأهواء الأمم .

وليس فى المناهج والدعـوات المطروحة من شىء إلا وعند المسلمين مثله أو خير منه ، وهو هنا مقطوع الصلة بالله ولكنه فى الإسلام متصل .

لقد كان موقف الإسلام واضحاً فهو لا يُحتوى ولا ينصهر .

★ ★ ★

إن أساس حرية الاختيار فى الإسلام تقوم على الاعتقاد بأن الأصل فى الإنسان الخير على خلاف ماتقول به بعض الأديان من أن الإنسان خلق خاطئاً ، وخلاف ما جاءت به

التعاليم الهندوكية من أن الإنسان كان فى أول أمره دنساً فهو من أجل ذلك محمول على أن يتخبط فى سلسلة من التقمص نحو هدفه الأقصى من الكمال ، بينما يقرر القرآن أن الإنسان خلق طاهراً وخلق تاماً .

★ ★ ★

الإسلام - كما نص القرآن - ليس بدين جديد ، ولكنه الدين الأول الذى أوحاه الله إلى المرسلين منذ آدم إلى محمد ﷺ .

لم يرسل محمد ليؤسس ديناً جديداً فى أمة معينة ، ولكنه جاء لتصحيح الخطأ الذى طرأ على الأديان ، وليرفع التحريف الذى أصاب الدين الأصلى الذى أرسل الله به المرسلين .

★ ★ ★

الإسلام هو الذى أعطى شعوبه تلك القوة التى صارعت قوى الأكاسرة والقياصرة ودول أوروبا فى الحروب الصليبية وفى الاستعمار .

ولقد حمت قوة الإسلام مبادئها التى تدين بها ولم تعتمد مبادئ خصومها .

ولقد وضع الإسلام للناس منهجاً كاملاً للحياة والفرد والمجتمع ولم يفرض هذا المنهج فرضاً بل ترك للناس الحرية فى قبوله متى شاءوا .

★ ★ ★

ومنذ أن شكل الإسلام لونه المميز على خريطة العالم : فهو عالم مستقل له طابعه المفرد ﴿ **صبغةَ الله ومن أحسنُ من الله صبغة** ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٣٨] .

ومنهجه المتكامل المتجدد (بالتوحيد والإيمان والأخلاق) ومن ذلك اليوم أصبح للمسلمين قبلتهم الواحدة التى لم يحيدوا عنها ، تهوى إليها قلوبهم وأفئدتهم بالإيمان والفكر والنظر ولم يكن لهم بعدها - منذ ذلك اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - قبلة أخرى .

ولا تزال الكعبة المشرفة وستظل مركز الدائرة ، ليس فى أرض الإسلام ، بل فى الكوكب كله .

لقد كانت رسالة الإسلام أعمق حركة من حركات التحرر والتجديد عرفها تاريخ الشعوب فى العالم كله لأنها بادرت منذ اللحظة الأولى إلى تحرير الإنسان من ربقة الوثنية والثنوية والطاغوت ، وكل سلطان مارسته العقائد البدائية على المجتمعات القديمة واستقرت مقاليده فى طبقة الكهنوت .

﴿ يريدونَ أن يتحاكَموا إلى الطاغوتِ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٦٠] .

أى إلى أولئك الكهنة الذين كانوا يزعمون الاتصال بالغيب ، وأعلنت رسالة الإسلام مساواة الأجناس البشرية أمام العدل الإلهى ، وأزالت ضروب التباعد بين الشعوب ، فلم تقو عروش كسرى وقيصر على صد تيار التحرر الذى تدفق من جزيرة العرب ، وتحطمت الطبقة الساسانية الفارسية المعلقة على صخرة المساواة الإسلامية ، وانجلى الاستبداد البيزنطى عن سواحل حوض البحر الأبيض المتوسط . (دكتور / صلاح الدين الناهى) .

★ ★ ★

تكامل القيم فى الإسلام ركيزة أساسية حيث يقوم على أساس :

توازن – بين الفرد والجماعة .

ملاءمة – بين العقل والقلب .

مطابقة – بين الكلمة والسلوك .

أما الإيمان فهو يعنى الاعتقاد بفكرة اعتقاداً جازماً ممزوجاً بعاطفة يجعلها تسيطر على العقل والقلب فى آن واحد ، وأعلى درجات الإيمان ، هى الإيمان بالله تبارك وتعالى .

أما المعرفة فهى العلم بشىء دون الإيمان به والعاطفة تعطى الفكرة قوة وإنسانية وحيوية ولابد من ضرورة استواء الفكر والعاطفة بحيث لا ينفصلان وكلاهما ضرورى .

فالعاطفة مضيئة بأنوار الفكر ، والفكر مشوب بحرارة العاطفة .

وبالجملة فإنه يمكن تعريف الإسلام باختصار وتركيز شديدين بأنه وإعادة صياغة الإنسان ووضعه فى مكانه الصحيح من الكون : الإنسان الذى حركة تاريخه الذاتى والخارجى إلى أن يخرج مرات ومرات عن إطار فطرته الأصيلة المعجونة بإعجاز من الروح والمادة والفكر والدم والأعصاب والوجدان والعواطف والشهوات ، وكلها تبعده عن مساره المرسوم فى العالم ولا تكون نتيجة هذا الخروج والإبعاد إلا تمزقاً فى الذات البشرية وانحرافاً عن طرائق تعاملها مع العالم ، ومن ثم تواجه شقاء ونكسة وانهياراً .

ومن هنا كانت دعوة الله تبارك وتعالى للإنسان لإعادته إلى فطرته التى فطره الله عليها وبعثه فى طريقه المرسوم لكى يحيا ويسهم إسهاماً فاعلاً فى إعمار الأرض التى ارتبط بها كمستخلف مسئول أمام الله تبارك وتعالى .

منهـــج القـــرآن

منهج القرآن هو الذى حرر الإنسانية من سذاجة التفسير الكنسى ، وجفاف المنطق العلمى .

فالوحى الإلهى يقدم الأسلوب والمنهج القائم على الفطرة والمستقبل لحاجات النفس والروح ، وليس هناك أسلوب غيره يمنح هذه الهبة العظمى ، وقد خاطب القرآن الكينونة البشرية والروح الإنسانية الحية ، ولم يكن اللاهوت هو الشكل المناسب .

ولقد كانت معجزة القرآن : معجزة بيان وفكر وذكر وأصالة (ميراث الأنبياء) وأكبر ما أعطى القرآن : الفكر والذكر (معرفة قدرة الله وإعطاؤها قدرها) والبيان . والارتفاع فوق طفولة البشرية بالنظرة الشاملة ذات الأبعاد التى ترتبط بالأزل والأبد ، والدنيا والآخرة وتستمد أول نقطة انطلاقها من الله تبارك وتعالى ثم تعود إليه بعد إتمام الجولة .

لقد وضع القرآن المسلم بين حدين هما الوعد والوعيد .

المنهج القرآنى فى تناوله للنفس الإنسانية

اتبع الإسلام ثلاثة سبل فى توجهه نحو الإنسان :

١ - صنف التصرفات الإنسانية إلى خيرة تعد فضائل (الصدق والصبر والإحسان) ، وإلى شريرة وتعتبر رذائل مثل : الخيانة والحسد والضغينة .

٢ - سن مجموعة من الأخبار والتشريعات وأتبعها بما يتناسب من كفارات وعقوبات ، إيماناً من الإسلام بأن النفس الإنسانية فى حاجة إلى حوافز وضغوط ليضطرها إلى الطاعة .

٣ - دعا مع تأكيده على مبادئ العدل والحق إلى التحلى بفضائل الصبر والعفو والرحمة والتسامح ومراعاة كرامة الإنسان .

★ ★ ★

١ - يعتمد القرآن الكريم فى التبليغ والإرشاد والإقناع على جميع مدارك الإنسان من عقل ووجدان وحواس .

ويسعى إلى التنسيق بينها بغية التوافق والتناغم فهو حين يستعمل كلمة (عقل)فهو يدمج فيها هذه المدارك بسبب تداخلها وتفاعل بعضها مع البعض الآخر .

٢ - يساير الطبيعة الإنسانية فى ماهى مجبولة عليه من خصال متقابلة كالحب والكره والخوف والرجاء والحسنة والعقوبة وغيرها فيستغل حركة هذه المشاعر للنفاذ إلى ذاتها واستثمارها فلا ينكرها ولا يكبت إحداهما لفائدة الأخرى ، بل يستغلهما معاً ولكنه يوجهها الوجهة الصالحة لفائدة الإنسان فى الدارين الدنيا والآخرة .

فالحب ينبغى أن يكون لما فيه الخير والحق والعدل وأكده لتفيض هذه القيم اللهم إلا إذا كان فيه خير واستسلام لأمر الله .

قال الله تعالى : ﴿ **كُتب عليكم القتال وهو كُره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم** ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢١٦] .

والقرآن يجعل الإنسان يعيش بين الخوف والرجاء لما لهاتين الحالتين من تأثير على النفس التى تعرف بالرغبة فى اتقاء العذاب والآلام وفى النفور من اليأس ومداخل ذلك يترك له الإسلام باب التوبة مفتوحاً للرجوع عن الغى والضلال .

قال الله تعالى : ﴿ **فمن اتقى وأصلحَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ .

[سورة الأعراف ، الآية : ٣٥]

★ ★ ★

والقرآن لا يحتقر الحسية ، لأنها تدخل فى الطبيعة الحيوانية للإنسان ، بل يدعو إلى التوازن بينها وبين الروحية والمعنوية وعدم المغالاة فى إحداهما على حساب الأخرى .

قال تعالى : ﴿ **وابتغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرةَ ولا تنس نصيبكَ من الدنيا** ﴾ .

[سورة القصص ، الآية : ٧٧]

٣ - يحرص على تقوية وتزكية الأدوات التى من شأنها أن تعين النفس على الاستقامة ، فتدعو إلى التفكير والتدرب على اكتشاف الحقائق .

قال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليَدَّبروا آياتهِ وليتذكر أولو الألباب** ﴾ .

[سورة ص الآية ٢٩]

★ ★ ★

لقد انطلقت الثقافة الإسلامية بكل أصولها وفروعها من القرآن : تفسيراً ودراية وتأويلاً وفهماً مما حفل به الفكر الإسلامى من مذاهب ونظريات دينية ومذهبية وعقلية كلها كانت انطلاقاً من القرآن ورغبة فى الوصول إلى الحقيقة .

وكان القانون (الفقه) فى مقدمة ما استنبطه المسلمون من القرآن .

ولوكان القانون الأول فى الوطن الإسلامى والعربى وضعياً غير قرآنى لما طبع العقل العربى بالقانونية ؛ ذلك لأن المسلمين والعرب قاطبة كونوا ثروتهم الفكرية انطلاقاً من القرآن وحول القرآن .

أما قبل الإسلام ، فقد كان الفقه الرومانى هو السائد فى العالم طبعته عقلية السادة فى مقابل العبيد ، والقوة فى مقابل الضعف ، والحاكم فى مقابل المحكوم .

القرآن الكريم والشريعة الإسلامية

تتميز الشريعة الإسلامية بالشمولية والمرونة مما جعلها صالحة للتطبيق على مناحى الحياة المختلفة ، وأن أحكامها تستوعب التطور وتلبى مستجدات العصر الحاضر ، وأنه يمكن الاستفادة من تجارب المدارس الفقهية المختلفة مما لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية كما أن باب الاجتهاد يجب أن يظل مفتوحاً ضمن قواعده وأصوله ، وأن تشتمل هذه الأسس على الشروط التى يجب توافرها فيمن يتولى الاجتهاد سواء أكان فرداً أم جماعة أم مؤسسة .



ولقد نظم القرآن الكريم العلاقة بين الناس ، فكان المصدر الأول للقانون والشريعة فى المجتمع الإسلامى الذى أراد له أن يكون مجتمع المؤمنين المنظم على أساس القانون ، وليس على أساس الهوى ، ولم يكتف القرآن بالدعوة إلى الله تبارك وتعالى والخلق الكريم ، ولكنه وضع نظاماً كاملاً لهذه العلاقة بين الناس .



التغيير فى الإسلام

(١) يكاد يكون التغيير فى الإسلام جزءاً من الإيمان :

﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم** ﴾ [الرعد ١١] .

(٢) ويتطلب التغيير التفتح على تجارب الغير وتكييف النظم مع قيم الإسلام ؛ ذلك أن نظرة الإسلام إلى الإنسان نظرة جامعة وتكريمه لها بتناول الخير ويمتد إلى الفكر والروح وما إلى ذلك مما هو معروف أو قد تبرره حاجات وتطورات جديدة فى المستقبل .

ومن حق الأجيال علينا أن نتعرف على مناهج وسياسات بدأت عندنا ، وتم اقتباسها من طرف الغير فى فترة من الزمن ، ثم تم تطويرها وأعيد تصديرها إلينا بعدما تخلفت بنا الذاكرة ، فأصبحنا ننظر إلى الغير مبهورين فعمدنا إلى التقليد والمحاكاة دون انتباه إلى الفهم يجب أن يسبق الفعل وعزفنا عن ضبط الغايات فغدونا نستعمل الوسائل لغير ما أعدت له ومن هنا فإن الدول الإسلامية مطالبة بالعمل على إصلاح الخلل الذى جاء به التطور الحاصل فى النظم التى كانت سائدة قبل الانفتاح على الحضارة الغربية ، والذى أنتج عدداً من الآثار السلبية المتناقضة مع الأهداف العامة التى وضعها الإسلام للتطور الاقتصادى والاجتماعى والسياسى .

★★★

الباب الثانى
نظام الإسلام

أقر فريق من كُتَّاب الغرب بالرغم من عدم إيمانهم بالإسلام بأن الخطاب القرآنى يحتوى على أصول اجتماعية صالحة للأخذ بها فى كل زمان ومكان .

كما اعترف هانونو بإشعاع الإسلام فى العالم كله - بما فيه المستعمرات الفرنسية والبريطانية - بوصفه ديناً توحيدياً يؤاخى بين المسلمين مهما تباعدت أقطارهم واختلفت شواغلهم وهمومهم المحلية .

رفض النظام الإسلامى الأنظمة السياسية السابقة ، ووجه هجومه إلى النظام القيصرى والكسروى ، وأعلن أنه لا ملك إلا لله تعالى ، وقد اشتد غضب الله على رجل يسمى ملك الملوك .

أكسروية هى أم هرقلية ؟

ما هو الفرق بين نظام الإسلام والنظم السابقة يسأل عمر بن الخطاب سلمان الفارسى - رضى الله عنهما - الذى عرف الملك الكسروى وعاش فى بيئته : أملك أنا أم خليفة ؟

فيقول له سلمان : إن أنت جنيت من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ثم وضعته فى غير حقه فأنت ملك غير خليفة .

الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا فى حق ، فإذا فعلت فأنت عند الله خليفة (طبقات ابن سعد ج ٣) ، وكذلك رفض الإسلام نظام كسرى وقيصر وفرعون ، ورفض عقيدة الحق الإلهى التى كان الملوك يحكمون بها ورفض النظام الطبقى الثابت : الطبقة لا تخرج عن حدودها فالعبيد هم العبيد .

هذه القيصرية الرومانية البيزنطية ، والكسروية الفارسية ، والفرعونية المصرية القديمة ، التى تقول بأن ذات الإمبراطور مقدسة إلهية فوق مستوى البشر فهو فى نظر رعيته إلهاً لا يقترب الفرد من حضرته إلا ساجداً ؛ لذا كانت الدولة الإسلامية غير ذلك . أخرج قادتها الخلافة من بيت النبوة حتى لا تجتمع النبوة والخلافة فى شخص واحد ولا فى بيت واحد . كما أن النظام الطبقى ليس عمادها .

وعندما بلغ أهل اليمن والبحرين وعمان نبأ اختيار الرسول ﷺ للرفيق الأعلى سألوا عن نظام الحكم ، وعن الرجل الذى ولى السلطة فى المدينة ، وقالوا لعمال رسول الله ﷺ :

هذا الذى بايعه الناس بعد رسول الله : ابنه أم أخوه فقيل لهم : لا . قالوا : فأقرب الناس منه ؟ قيل فما شأنهم ؟ ، قيل اختاروا أخيرهم فأمروه عليهم .

قالوا : لن يزالوا بخير ما صنعوا هذا . (القاضى عبد الجبار فى تثبيت دلائل النبوة) .

★★★

حقوق الإنسان فى الإسلام : الفرد والجماعة والمجتمع والحضارة .

كيف رسم الإسلام حقوق الإنسان ومسئولياته ؟ .

كيف أخرج الإسلام الإنسان من العبودية التى كانت ظاهرة طبيعية لإمبراطوريات اليونان والرومان والفرس والفراعنة ، كانت (العبودية) أساس هذه الحضارات بينما ألغى الإسلام الرق .

قال القاضى عبد الجبار : إن المسيحية عندما دخلت روما لم تتنصر روما ، ولكن المسيحية هى التى ترومت .

٢ – أشار القرآن إلى الإرادة الحرة للإنسان فى ثلاثة وستين موضعاً .

٣ – حدود الإسلام ليست حلولاً للمشاكل بقدر ما هى وقاية من المشاكل .

٤ – قال عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فى خطابه إلى القاضى المسلم .

لا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس هديت فيه إلى رشدك أن ترجع فيه إلى الحق ، فإن الحق قديم والرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل .

إن النظام الإسلامى هو المنطلق الحقيقى لبناء المشروع الحضارى الإسلامى بقاعدته العريضة من خلال فروعه الثلاثة :

(١) الشورى .

(٢) العدل الاجتماعى .

(٣) الحدود والضوابط .

وهذه القيم الأساسية هى وحدها التى تمكن المجتمع الإسلامى من التماثل المفضى إلى الوحدة الإسلامية الجامعة حيث تتسع دائرة (التشابه) وتمتد بمفهوم (

التعارف) الإسلامى بحيث تلتقى كل العناصر والأقطار والقوميات حيث يصور الوطن الإسلامى وحدة كاملة فى مجال الاقتصاد والثروة والقوى العاملة والأرض الزراعية ومعطيات البترول والمنجنيز والكوبلت ، وليس هناك طريق آخر لبناء المشروع الحضارى غير إقامة التصور السياسى والاقتصادى والاجتماعى على أساس منهج الإسلام نفسه وليس على واقع المجتمعات القائمة اليوم حيث تجرى المحاولة لوضع قضية الديمقراطية بديلاً عن تطبيق الشريعة أو اعتبارها - أى الديمقراطية) مرتكزاً أساسياً للمشروع الحضارى الإسلامى ، إذ أن الديمقراطية الغربية ، لايمكن أن تكون هى قاعدة النظام فنحن نعرف الديمقراطية منذ جاءت من الغرب وكيف أنها عجزت عن تحقيق أى عدل اجتماعى أو شورى حقيقية ، وإنما هى فى واقع الأمر بصورتها الحالية منطلق أو مدخل لتحقيق التصور الإسلامى .

أما ما يقال عن أن تطبيق الشريعة يتم فى نهاية المطاف إذا قدر له ، فذلك هو ما ينطلق من أهواء الذين يرمون إلى قيام مشروع حضارى إسلامى ترضى عنه القوى المعارضة للنظام الإسلامى أساساً .

ونحن نعرف أن هؤلاء يرغبون فى قص أجنحة الصحوة الإسلامية بالقضاء على المعالم الحاسمة فى المشروع الإسلامى .

وفى مقدمتها : الوحدة الإسلامية ، وتطبيق الشريعة والنظام النيابى والشورى الملزمة وإقامة المشروع الحضارى الإسلامى على غير الأساس الذى قام عليه الإسلام فى منابعه ومصادره الأولى .

ويجب أن يكون واضحاً أن الشورى الإسلامية ليست هى الديمقراطية ، وأن العدل الاجتماعى ليس هو الاشتراكية كما يدعى بعض الكُتَّاب الذين يحاولون (التمويه) على الشباب المسلم ، ولنكن واعين تماماً إلى حقيقة أساسية وهى :

أن الفكر الليبرالى الغربى قد أثبت منذ سنوات عديدة حين طبق فى البلاد العربية والإسلامية أنه فاشل تماماً وتأكد عجزه عن العطاء ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للنظام الماركسى الاشتراكى .

ولقد أكدت الأحداث هذه الحقائق حين ظهر فى السنوات الأخيرة فشل الفكر الماركسى فى بلاده بعد سبعين سنة من التطبيق ، وانهارت الدعائم الماركسية اللينينية وسقطت تماثيل ماركس ولينين وستالين فى مختلف عواصم الغرب اليسارى .

وكذلك تأكد من أزمة الخليج عجز الفكر القومى بصورته الحالية عن العطاء وتكشفت حقائق كثيرة تؤكد انهيار هذه الدعوات ، وأن الطريق مفتوح أمام النظام الإسلامى .



يقول (هـ ج والز) :

لقد ساد الإسلام ؛ لأنه كان أفضل نظام اجتماعى سياسى يمكن أن ينتجه الزمن ، وقويت شوكته ، وعلت كلمته ؛ لأنه عندما جاء صادف شعوباً مسترقة مستباحة مضطهدة جاهلية مشتتة الصفوف ، جاء فكان أكثر الأفكار السياسية رجاحة وحداثة وصفاء وطهراً ، يظهر فوق أرض الواقع فى ذلك العالم ، والإسلام حافل بروح العطف والشهامة والأخوة ، وهو دين الفطرة ، بسيط سائغ الفهم وقد بقى القرآن عبر أربعة عشر قرناً من عمر الزمن بغير تبديل وبغير إمكانية لمثل هذا التبديل ، أصبح موضوعاً لآلاف التفسيرات والتعليقات وسجلت كلماته فى ذاكرة ملايين من البشر.

وهو أهم كتاب فى التشريع فى تاريخ الإنسانية على الإطلاق ، فكل تشريع من صنع الإنسان إلا القرآن فهو كتاب الله وكلامه المنزل المحكم . ا هـ .



مقاصد الشريعة :

يتحدث العلامة علال الفاسى عن مقاصد الشريعة كما أرادها الله تبارك وتعالى : هى عمارة الأرض وحفظ نظام التعايش فيها واستمرار صلاحها بعلاج المستخلفين فيها وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة ومن صلاح فى العقل وفى العمل وإصلاح فى الأرض واستنباط لخيراتها وتدبير المنافع للجميع .



ولما كان الإنسان مستخلفاً فى الأرض ومكرماً ومفضلاً على المخلوقات الأخرى ولكنه فى مقابل هذا التكريم وهذا الامتياز مكلف ومبتلى ومطوق بالمسئولية وسيحاسب عليها يوم القيامة .

ومن بين ما استعمله الإسلام فى توجيه الإنسان وتقويمه مجموعة من التشريعات التى تشكل حجر الزاوية بالنسبة للشريعة بكاملها .

(١) هدف الشريعة تحقيق مصالح العباد .

(٢) تنظيم العلاقات بين الإنسان والله تبارك وتعالى الخالق المشرع وبين الإنسان والإنسان وبين الإنسان وبيئته الطبيعية .

(٣) الأحكام بها المباح والمحرم والإباحة هى الأصل وكل ما لم يحرم فهو مباح ، ومنها المفروض والممنوع ، ومنها المستحب والمكروه .

★★★

[الأحكام التشريعية التى شرعها الحق تبارك وتعالى لتعين الإنسان على نفسه وبيئته] :

١ - انسجامها مع طاقة الإنسان فلا يطالب الإنسان إلا بما يطيقه قال تعالى : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ [سورة البقرة ، الآية ٢٨٦] .

ولا يجعله مسئولاً إلا على ما اقترفه هو فلا يتحمل وزره غيره .

٢ - المرونة فى التطبيق والميل إلى التيسير « يسروا ولا تعسروا »(١) .

﴿ **وما جعلَ عليكم فى الدين من حرَج** ﴾ [سورة الحج ، الآية : ٧٨] .

وفى نطاق المرونة تجد الشريعة تميل إلى التوسط والاعتدال .

قال تعالى : ﴿ **ولا تجعل يدك مَغلولةً إلى عنقكَ ولا تبسطها كلَّ البَسط** ﴾ .

[سورة الإسراء ، الآية : ٢٩]

٣ - الحل هو الأصل فى الأحكام وليست الحرمة فكل ما لم تتأكد حرمته فهو حلال . قال تعالى :

﴿ **قل إنما حرمَ رَبى الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بَطنَ** ﴾ [سورة الأعراف ، الآية : ٣٣] .

لقد دعى الإنسان إلى اللجوء إلى الصبر إذا وجد الباب المسدود ووضع ثقته فى الله تبارك وتعالى : ﴿ **ومن يتوكلَ على الله فهو حَسْبُه** ﴾ [سورة الطلاق ، الآية ٣] .

وتعويض العجز عن اتخاذ الموقف بالعبادة فيفتح الله له أبوابًا لم يكن يتوقعها .

قال تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ .

[سورة الطلاق ، الآيتان : ٢ ، ٣]

---

(١) أخرجه البخارى (١/١٥٠)

لحق : الإسلام منظومة متماسكة الأجزاء :

(العقيدة والشريعة ومجموعة القيم والنظم) وكلها تشكل وحدة منسجمة متكاملة الأطراف يخاطب بها الإنسان ليقوم بها سلوكه ، ويخضع لها مكونات كيانه من حواس وعقل ووجدان ومدارك فكرية وشعورية الظاهرة فيها والباطنة .

فقد زوده الله تبارك وتعالى بالفطرة والغرائز والمشاعر العملية والعقلية .

★★★

يشكل الإسلام منظومة متماسكة الأجزاء تشمل العقيدة والشريعة ومجموعة من القيم والنظم وتشكل جميع هذه العناصر وحدة منسجمة متكاملة الأطراف يخاطب بها الإنسان ليقوم بها سلوكه ويحفظ بها كرامتـه ومصالحـه فيما جـاء فى كلام الشاطبى فى كتاب « الاعتصام » .

* النظر إلى الإنسان ككل - أى بجماع مكونات كيانه من حواس وعقل ووجدان .

وقد اتخذ الإسلام فى مواجهة الإنسان (بجماع كيانه) منهجاً عاماً ومنهجاً فى التشريع ومنهجاً فى التبليغ .

وجعل هذه المناهج مقترنة ببعضها متلازمة تمتد على حياة الإنسان بكاملها من حيث الامتداد .

خصائص النظام الإسلامى :

ليس النظام الإسلامى نظاماً أرثوقراطياً أو نظاماً كهنوتياً أو نظاماً ديمقراطياً .

ذلك أن الإسلام لا يمنح السلطة أو السيادة إلى طبقة معينة أو حزب أو فئة من الناس ولا يمنحها أيضاً للشعب ؛ لأن السيادة فى الإسلام ممثلة فى الله تبارك وتعالى فهو السلطة العليا فى الإسلام .

- وأن مفهوم الإسلام للقومية يختلف عن المفهوم الحديث لها حيث يبقى الإسلام التميز بين الشعوب على أساس العرق أو اللون أو اللغة أو الشكل .

أما الخلافة فمهمتها جعل الجماهير تفكر حسبما تتطلبه بصيرتهم الدينية فى مصالحهم الدنيوية والأخروية .

- الحكومة الإسلامية حكومة دستورية بكونها مقيدة بالقانون الأعلى وهو الشريعة الإسلامية .

وترتيباً على ذلك فإن أعضاء الحكومة ملزمون بعدم الخروج على ذلك .

وذلك بالإضافة إلى بقية رغبات رعاياهم استناداً إلى حديث الرسول ﷺ (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[1] .

المشاركة السياسية فى النظام الإسلامى :

هو النظر فى صيغة الحكومة الإسلامية فى ظل النظام الإسلامى ويتمحور الحديث عن المشاركة السياسية فى النظام الإسلامى حول مبدأ الشورى ، وهو عملية استطلاع رأى أفراد الأمة فى الدولة الإسلامية ، وفى الأمور العامة .

السياسة الاقتصادية :

مصادر الدخل فى الدولة الإسلامية والتى تتمثل فى الزكاة بشروطها التى أقرتها الشريعة إضافة إلى الجزية والخراج وضريبة الركاز والاستثمار .

السياسة الاجتماعية للنظام الإسلامى :

من خلال شمولية الإسلام لجميع نواحى الحياة . والتركيز على قضية المرأة لدحض الافتراءات التى دست فى الفكر الإسلامى (حسن حسان العلكيم) .

★★★

(١) أخرجه البخارى (٢ / ٣١٧) ، ومسلم (١٨٢٩) .

الباب الثالث
الشريعة الإسلامية

تقدم الشريعة الإسلامية تصوراً كاملاً للحياة الإسلامية الكاملة قولاً وعملاً ، فلا تترك جزءاً من الحياة لاتنظمه الشريعة ، فالشريعة نظام جامع للحياة كلها .

وتتميز الشريعة الإسلامية بالشمولية والمرونة مما يجعلها صالحة للتطبيق فى مناحى الحياة المختلفة .

وقد جعل الحق تبارك وتعالى أحكامها مرنة تستوعب التطور وتلبى مستجدات العصر الحاضر ، وأنه يمكن الاستفادة من تجارب المدارس الفقهية الأخرى فيما لايتعارض مع الشريعة الإسلامية .

كما أن باب الاجتهاد يجب أن يظل مفتوحاً ضمن قواعده وأصوله ، وأن تشتمل هذه الأسس على الشروط التى يجب توافرها فيمن يتولى الاجتهاد سواء أكان فرداً أم جماعة أم مؤسسة . ولما نزل القرآن الكريم لم يكتف بالدعوة إلى الله تبارك وتعالى وإلى الخلق الكريم ، ولكنه نظم العلاقة بين الناس ، فكان المصدر الأول للقانون والشريعة فى المجتمع الإسلامى الذى أراد له أن يكون مجتمع المؤمنين المنظم على أسس القانون وليس على أساس الغواية والهوى .



إن أبرز ما يمثل التشريع الإسلامى : الالتزام الخلقى وعندما يلتزم المرء أخلاقياً ، فإن الرقيب هو الضمير وعندما يلتزم الفرد قانونياً ، فإن الرقيب هو السلطة وشتان بينهما .

قال ستتلاتا : إن الفكر الإسلامى فى مجال الأخلاق ترك تأثيراً على القانون الدولى بشكل عام ، وعلى القانون التجارى والتجارة بشكل خاص .



ويتمثل التشريع الإسلامى فى زيادته لكثير من المعروفات التى بات يعرفها القانون الدولى المعاصر ، ومنها قوانين الحرب والمعاهدات .

ويقـوم القـانون الإسـلامى على التـسليم المطلق بإرادة الله تبـارك وتعـالى ، فليـست الشريعة هى مجرد القانون الإسلامى ، بل هى أوسع وأشمل بكثير ، إذ هى تنفذ عميقاً إلى حيث الفكر والسلوك والكسب بأكثر مما يطمع أى نظام قانونى بحت من الوصول إليه .

فالشريعة ترسى أسس علاقة الفرد بالجماعة والكون وبالخالق سبحانه وتعالى .

وتعاليم الإسلام وممارساته لا يمكن أن تنفذ بمعزل عن الأخلاق ويتم تجسيد هذه القيم الأخـلاقية فى مواد الشريعة ، وأن تترجم الأخلاق إلى قانون فيضمن لهـا الاستمرار والتكافـل .

الشريعة بماذا تفضل القانون ؟

أولاً : مراعاة الشريعة لطباع البشر وفطرهم ؛ لأن الذى أنزلها هو الذى خلق الخلق ، وهو أعلم بما يصلحهم .

ومن هنا نرى اشتمالها على مبادئ الرحمة والرأفة . وسيرها على مبادئ المساواة بين الناس بغض النظر على أجناسهم .

ثانيـاً : تعتمد فى تطبيقها على تنمية الوازع فى نفوسهم وإشعارهم بمراقبة الله لهم ؛ ولذلك فإنهم يسارعون إلى تطبيقها على أنها عبادة الله تبارك وتعالى .

ثالثـاً : الجزاء فى الشريعة دنيوى وأخروى ، ومن فاته نصيبه فى الدنيا فلا يفوته فى الآخرة ، ولذلك فهى تبعث على الرضا والاطمئنان .

رابعاً : لها صفة الشمول والبقاء لما يتضمن أصولها من عناصر الخلود والبقاء بما يمكن لها من استيعاب كل المشاكل ووضع كل الحلول .

خامساً : عملت الشريعة على منع الجريمة قبل وقوعها عملاً بمبدأ الوقاية خير من العلاج فأحاطت المسلم من جميع نواحيه بحصون منيعة وتصونه من الانزلاق إلى مهاوى الرذيلة والاتجاه نحو الانحراف وقد نهج الإسلام فى تحقيق ذلك إلى عدة طرق :

١ـ منها التربية السليمة والعبادات التى لها أكبر الأثر فى تطهير النفس وتصفية الروح ووقايتها من الوقوع فى المعاصى والآثام .

٢ – نهى الشريعة عن ارتكاب المحرمات منذرة بسوء العاقبة التى يتردى فيها مرتكبو الجرائم .

٣ – سدت الطرق الموصلة إلى المحرمات فحرمت الزنا وسدت الطرق التى من شأنها أن تثير الشهوة أو تحرك العواطف الجنسية ، فأمرت بالاستئذان وغض البصر وتستر المرأة وعدم الخلوة بالمرأة .

٤ – أوجبت الشريعة على المسلمين التعاون على البر والتقوى ، والتواصى بالحق والصبر ومحاربة الإثم والعدوان والشر والفساد .

★ ★ ★

أثبت العلم تفوق الشريعة الإسلامية على القانون الوضعى ، فى العلاقات الإنسانية وفى مسألة المرأة ، كما أعلن الإسلام أن للضعفاء حقاً فى كسب الإنسان اليومى ، ولهذا صدر قانون الزكاة .

الدعوة إلى الاجتهاد

الدعوة إلى الاجتهاد باعتباره مصدراً أساسياً من مصادر التشريع الإسلامى نظراً للتحولات الكبرى التى يشهدها عالم اليوم فى شتى المجالات وتسربها إلى المجتمع الإسلامى

على امتداد رقعته واختلاف أجناسه دون أن يستطيع لها ذكراً وبسبب تفتحه على مذاهب شتى ، وما يحمله من قيم جديدة تجرف معها العديد من المشاكل التى تتطلب الحلول الملائمة .

المطلوب اليوم من العلماء أن يعودوا إلى مناهل الإسلام فيفتحوا منافذ من نوره على حياة المسلمين ، وأن يبعثوا روح الدين حية نابضة حتى لا يبقى فى هذا الانعزال الخطير .

★ ★ ★

إن الظروف التى أدت إلى سد باب الاجتهاد وقتية ، وهى أن الدولة الإسلامية انقسمت فى القرن الرابع الهجرى إلى دويلات وممالك أضعفت الأمة الإسلامية ، وقطع الروابط السياسية فيما بينها ، فكان من جراء ذلك ضعف الاستقلال الفكرى .

وقد نادى ذلك بالدعوة إلى سد باب الاجتهاد ومنعاً من ولوج أناس فيه ليسوا أهلاً للاجتهاد والاستنباط ، وهذه مرحلة انتهت ، ولما كان الاجتهاد هو حركة العقل الإنسانى

المستنير القادر على التطور بتطور الأحداث وابتكار الأحكام الملائمة للظروف إذا استند إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومبادئ الإسلام العامة .

وكانت الحاجة إلى الاجتهاد فى التشريع الإسلامى قد اشتدت منذ نهاية القرن الميلادى الماضى ، وعلى مدى هذا القرن مضت الدعوة السلفية على يد جمال الدين الأفغانى - محمد عبده - رشيد رضا ، وكان لسقوط العالم فى قبضة الاستعمار الغربى ، ومحاولة الأخير تطبيق تشريعاته فى الأقطار الإسلامية ، وظهور مذاهب سياسية واجتماعية وأيديولوجيات جديدة وحركات العلمانية ، كان لذلك أثر بعيد فى التشبث بالهوية الإسلامية ، والدعوة إلى الإصلاح والاجتهاد والتجديد .

★ ★ ★

وكان الإسلام عن طريق علمائه وفقهائه قد قدم عدداً من العلوم الأساسية قبل ترجمة الفكر اليونانى والتأثر به .

فى مقدمة ذلك : (١) علم أصول الفقه (الشافعى) .

(٢) علم أصول الحديث .

(٣) العلاقات الدولية (للشيبانى) .

ويعبر علم أصول الفقه عن روح الحضارة الإسلامية ، فهو يدرس منهج البحث العلمى بوجه عام ، والبحث الفقهى بوجه خاص ، وقد سبق المسلمون بهذا العلم كل فقهاء القانون فى العالم ، فلم يعن هؤلاء الفقهاء بالتأليف فى أصول القانون إلا منذ نحو قرنين ، على حين عرف فقهاء الإسلام قواعد وأصول الاجتهاد واستنباط الأحكام منذ فجر الدعوة .

وكان أول كتاب فى الأصول صحت نسبته إلى مؤلفه ووصل إلينا هو « الرسالة » للإمام الشافعى فضمنه المبادئ الأساسية التى ينبغى أن يأخذ بها المجتهد فى الكشف عن أحكام الله فى أفعال عباده .

وكان المسلمون هم الرواد فى مجال تأصيل مناهج البحث العلمى ، وأن علماء القانون على تعمقهم فى البحث ووضع النظريات القانونية لم يبلغوا ما بلغ إليه فقهاء الإسلام من الاستيعاب والتعمق .

ومن ذلك : الرسالة للشافعى .

الأحكام لابن حزم .

البرهان للجوينى .

المستصفى للغزالى .

الموافقات للشاطبى .

ميزان الأصول فى نتاج العقول للسمرقندى .

المنحول فى تعليقات الأصول للغزالى .

المحصول فى علم أصول الفقه لفخر الدين الرازى .

★ ★ ★

قواعد الاجتهاد :

ولقد وضع علماء المسلمين قواعد عامة للاجتهاد منها :

(١) الاجتهاد ليس باباً مفتوحاً لكل من هب ودب ولابد للمجتهد أن يكون على معرفة تامة بالكتاب والسنة واللغة العربية ومقاصد الشريعة وأصول الفقه ومعرفة الناس والحياة .

(٢) الأمور التى قطع فيها التشريع بحكم لا ينبغى أن يكون موضعاً للاجتهاد .

(٣) لابد أن نفسح صدورنا للمجتهد حتى وإن أخطأ ، فهو ليس معصوماً .

(٤) أن الاجتهاد فريضة وضرورة : فريضة من الوجهة الشرعية ، وضرورة من الناحية الواقعية .

يقول الشيخ يوسف القرضاوى : نحن الآن فى حاجة إلى نوعين من الاجتهادات : أحدهما اجتهاد ترجيحى انتقائى والآخر إبداعى وإنشائى .

الترجيحى الانتقائى أن عندنا ثروة هائلة من المدارس الفقهية المختلفة : أين موقفنا منها وقد تكون متعارضة فى بعض الأمور ؟

يقولون : الإسلام يوجب الزكاة على الزراع الفقراء : زراع القمح والشعير ، وبعض الإقطاعيين الكبار لأنهم أخذوا بمذهب الشافعى ونسوا مذهب أبى حنيفة .

النوع الثانى : الاجتهاد الذى يتطلبه العصر وهو مانسميه الاجتهاد الإبداعى الإنشائى .

ما يتعلق بالمشاكل الجديدة فى عصرنا التى لم يعرفها السابقون وربما عرفوها ، ولكن بكم ضئيل فى مجال المال والاقتصاد ، حدثت شركات لم يكن لها وجود من قبل : شركات المساهمة والتضامن والتأمين والشركات القابضة والمصارف والبنوك ، وخطابات الضمان والاعتمادات المستندية كل هذه تحتاج من العلماء أن يدرسوا ، وقد يجدون فى فقه السلف ما يعاونهم ولكن لاشك أن كثيراً منهم لم يعرض على السلف ، كذلك أمور الطب لزرع الأعضاء ، وهل يمكن أن ينقل عضو من كافر لمسلم أو من حيوان كالخنزير للإنسان .

لابد أن نجتهد لعصرنا كما اجتهد فقهاؤهم لعصرهم .

أهمية الاجتهاد فى الفكر الإسلامى

قواعده وأصوله وأثره فى استنباط الأحكام :

يقول أحد الباحثين : إن الاجتهاد الذى استحسنه الرسول ﷺ يفرض على الأمة الإسلامية أن تستمر فى العمل به ، وإن أهميته فى الفكر الإسلامى تكمن فى كونه وضع أسس ظاهرة إنسانية ، هى ظاهرة استعمال الفكر للوصول إلى الغايات ، وأن المشاورة هى صنف من أصناف الجهاد .

إن الجهاد فى اللغة مأخوذ من الجهد الذى يعنى بذل الجهد والوسع والطاقة مشيراً إلى أن الاجتهاد يرتبط بقواعد اجتماعية وشرعية ويكون بالتالى متصلاً بالعقيدة أو القواعد الوضعية وأن الإسلام اعتبره من لوازم الأمانة التى يعبر بها الإنسان عن إنسانيته ؛ لأنه يشكل سبيلاً للاقتناع والاطمئنان واليقين مستشهداً على ذلك بآيات قرآنية فى كتاب الله العزيز .

وأكد أن أوسع مجالات الاجتهاد فى الفكر الإسلامى هى ما لم يرد لا فى السنة ولا فى الكتاب مذكراً بالدور الذى قام به الخليفة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الذى لم يقر مبدأ الاجتهاد فقط بل تعداه إلى نطاق البحث وكذا يدور لبعض الأئمة وعلى رأسهم الإمام الشاطبى الذى اجتهد فى إطار نظرية (المقاصد) مبرراً بأن أعماله ظلت منسية بسبب مالقيه من معارضة إلى أن أثارها من جديد فى المشرق الشيخ محمد عبده أحد رواد الحركة السلفية وأخذ بنظرية الشاطبى ومن ثمة اعتمدها بعض علماء المغرب

العربى أمثال الظاهر ابن عاشور وعلال الفاسى وغيرهم من الذين كتبوا واجتهدوا ، وقد حصر الباحث الشروط التى تؤهل الباحث ليكون مجتهداً فى العلم باللغة العربية وأسرارها وحصول الملكة فيها ومن العلم بكتاب الله تبارك وتعالى وأحكامه وتشريعاته والناسخ والمنسوخ ، وفى العلم بالسنة ونصوصها ، ومعرفة الرواية ثم فى العلم بأصول الفقه .

إن الاجتهاد فى الفكر الإسلامى أدى إلى تعميق الشريعة الإسلامية والدين الإسلامى بصفة عامة وأن تأثيره كان واضحاً وفى الفكر القانونى الحديث وهو ما تجلى فى تبنى هذا الفكر لعدة نظريات جاء بها الاجتهاد الفقهى كنظرية التعسف فى استعمال الحق ونظرية دورة القانون المستمدة من مبدأ الشرعية فى كل أعمال الدولة ونظرية المصلحة والتعليل .

وهنا تبدو ضرورة التعامل مع الاجتهاد الإسلامى لا كمجموعة من الأحكام فقط ولكن كمنهج للبحث العلمى ، ودعا إلى الاستمرار فى استعمال الاجتهاد لأن الإسلام يركز على الاجتهاد ، لأن التوقف عنه يعنى التدهور والانحطاط بالنسبة للأمم . (دكتور سعيد بن البشير) .



شمولية الشريعة واستجابة أحكامها وقواعدها للتطور الحضارى المعاصر

يقول الدكتور / عبد الجبار : الشريعة الإسلامية نظام دين ودنيا فقد شملت الشريعة الغراء حياة الفرد المجتمع فى شتى العلاقات والجوانب ، وجاء الوحى إلى الرسول – عليه الصلاة والسلام – يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيماً فاتَّبعوه ولا تتبعوا السبل فَتَفَرق بكم عن سبيله** ﴾ [سورة الأنعام ، الآية: ١٥٣] .

أخذ المسلمون فى تطوير هذا التشريع خلال القرون الثقافية بحيث أصبح بناء منظماً لكل أنواع العلاقات بين الناس وقد نظمت الشريعة الغراء علاقة الفرد بخالقه سبحانه وعلاقته ببقية البشر ، من هنا جاءت الكلمة: أن الإسلام دين ودنيا . لم ينظم الإسلام علاقة الفرد بربه وخالقه فقط ، ولم ينظم علاقاته بالناس فقط ، بل نظم الاثنين وعلى أكمل وجه حيث تم التوازن بينهما ، ووضعت الشريعة القواعد المهمة إلى الأصول للاعتقاد والتعامل إيماناً بأن : (**الشريعة إلهية بمصادرها وأحكامها**)

ولها قوتها الملزمة مستمدة من فكرة الثواب والعقاب فى الحياة الدنيا والآخرة ،

فالمؤمن مراقب من الله تبارك وتعالى ومثاب ومعاقب على أفعاله وأقواله .

فهناك جزاء فى الدنيا وآخر فى الآخرة .

فالتزام المؤمن بأحكام الشريعة نابع عن الاقتناع والإيمان بالله سبحانه وتعالى .

وعلى العكس من ذلك نرى القوانين الوضعية تقنن العقاب والجزاء الدنيوى فقط ، وغاية ما يطمح الإنسان تحت ظلها ، وأن يكف عن الشر خشية العقوبة ، وإن سنحت له الفرصة تحايل وارتكب ما يحلو له من الآثام .

★ ★ ★

أما صفتها الجامعة فقد نظرت الشريعة الغراء إلى الفرد والجماعة على سواء واعتبرت أن مصلحة الفرد هى من مصلحة الجماعة لأن الفرد لبنة فى البناء الاجتماعى ، والنظرة الجماعية هذه ملموسة فى أحكام العبادات والمعاملات ، فحق الفرد مصان ومحفوظ لصاحبه ، وله استعماله واستغلاله وحمايته من اعتداء الغير بشرط ألا يضر ذلك بالفكر .

فالقاعدة كما قال عليه الصلاة والسلام : «لا ضرر ولا ضرار »[1] . والنتيجة أن الحق غير مطلق .

وهناك أمثلة كثيرة فى أحكام الشريعة لتقييد حق الفرد صوناً لمصلحة الجماعة ، وعند التعارض تقدم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد .

والأمثلة على ذلك كثيرة منها : النهى عن بيع الفرد على بيع أخيه ، وأن يخطب على خطبته ، وتقرر حق الشفعة ، وهو حق تملك العقار المبيع .

الشريعة : مرونتها وقابليتها للتطبيق وهذه الخاصية للشريعة تظهر أحكام المعاملات فقد وضعت وشرعت هذه الأحكام بشكل قواعد عامة ومبادئ شاملة ، وترك للمجتهد مهمة استخلاص التفاصيل أو الأحكام الجزئية منها ؛ ولذلك فقد ضمنت المرونة والقابلية للتطور حسب الوقائع وأصبحت أحكام الشريعة صالحة لكل زمان ومكان فى ضوء وإطار الأصول والقواعد الكلية .

فالتشريع الإسلامى هو مجموعة الأوامر والنواهى التى شرعها الله سبحانه وتعالى لعباده على يد الرسول ﷺ إلا أنه يمتاز بشموله وعمومه وصلاحيته لجميع الناس .

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٣٤٠) .

لأن الإسلام خاتم الأديان ورسالته عامة وهو شامل لتكوين الفرد وتوضيح علاقاته مع خالقه وعلاقاته مع غيره من الأفراد وهو شامل أيضاً ؛ لأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ولذلك بيان للخير والبعد عن الشر ، ولذلك كان الانقياد إلى الشرع طاعة لها ثواب أخروى وصلاح دنيوى .

★★★

وهو تشريع إلهى من عند الله العليم الحكيم ، فقد اختار لعباده ما يضمن لهم دوام الإصلاح ؛ لهذا كانت الأحكام الفقهية عامة عالجت أفعال العباد ، وكان للنية أهمية فى الثواب والعقاب .

وكان لأحكام العبادات تأثير عام على الفرد والمجتمع نظراً لأن العبادة مطهرة للنفوس مزكية للقلوب للخشية من الله ومراقبته فى السر والعلن .

كما أن الشريعة تلازم الفرد فى جميع أطوار حياته منذ كان جنيناً فى بطن أمه ، ترتب له حقوقاً ، وبعد ولادته خلال فترة الإرضاع والحضانة ، ثم يصبح صبياً يعلم مكارم الأخلاق والعبادات ثم يصير شاباً له حقوق وعليه واجبات إلى أن يصبح كهلاً .

★★★

والشريعة دين ودنيا ، أو دين وقانون ، والجزاء فيها يشمل الثواب عند الطاعة كما يشمل العقاب .

وفى هذا النص الأخير يظهر صفة الالتزام بما ينطوى عليه من معنى الأجر والجزاء الأخروى ، أو جزاء دنيوى تتولاه السلطة العامة للدولة .

فإذا نفذ هذا الجزاء الدنيوى سقط الجزاء الأخروى ، وإذا تاب العبد توبة نصوحاً سقطت عنه العقوبة فى الدنيا والآخرة برحمة الله .

★★★

ويظل الجزاء الأخروى قائماً على كل مخالفة لم يوقع فى شأنها جزاء دنيوى ، وللجزاء فى الشريعة صور مختلفة كما هو الشأن فى القانون الوضعى ، والعقوبات فى الشريعة هى الحدود والقصاص والدية والكفارة والحرمان من الميراث والتعزيرات .

فالحد عقوبة قدرها الشارع لا زيادة فيها ولا نقصان والحدود ستة (القتل فى الردة ،

والرجم ، والجلد مائة فى الزنا ، وقطع اليد فى السرقة والجلد ثمانين فى القذف والجلد ثمانين فى الشرب ، وحد قطع الطريق أو الحرابة) .

وهذا الأخير هو قطع يد قاطع الطريق ورجله من خلاف ، ثم إن أخذ المال ولم يقتل ، ومثله إن قتل ولم يأخذ المال وأخيراً النفى .

أما القصاص فهو عقوبة مساوية للجريمة ولعكس هذا حق العبد كما ورد فى سورة المائدة (الآية ٤٥) .

﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفسَ بالنفسِ** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **والجروحَ قصاصٌ** ﴾

ويسقط القصاص بالعفو من ولى الدم أو الصلح على الدية ، أما الدية فهى عقوبة مالية ، وهى تجب بدلاً من القصاص إذا رضى ولى المجنى عليه بها .

والكفارة عقوبة مقدرة ، وهى عتق رقبة مؤمنة فإن لم يجدها فصيام شهرين متتاليين ، وتجب فى القتل غير العمد ويتحملها القاتل .

والحرمان من الميراث عقوبة قاصرة أى أنها عقوبة تبعية توقع على القاتل تبعاً للعبودية الأصلية وهى القتل ، أما التعزير فهى عقوبة فى جناية ليس لها حد مقرر فى الشرع فهى عقوبة غير مقدرة .

* * *

وقد نصت الشريعة عل بعض جرائم التعزير كالربا وخيانة الأمانة والسب والرشوة ، وتركت إلى ولى الأمر النص على معظم ذلك حسب مصلحة الجماعة والتعزير فى حقوق الله وفى حقوق العبد .

ومن هنا فإن مصلحة المجتمع والمحافظة على كيانه هى مقصد الشريعة ، ورغبة فى إقامة مجتمع فاضل تسوده الأخوة والتضامن ، والشريعة باعتبارها ديناً ، وليس قانوناً فقد وضعت فى كفالتها لمصالح الناس الضرورية إلى مدى أبعد مما وصل إليه القانون الوضعى .

* * *

الشريعــة والمجتمــع

وضع الإسـلام أسسـاً ثابتة لقيام المجتمع الإسلامى الذى لا يمكن أن يبنى إلا عليها ، وهى قواعد جاء الوحى المنزل وبينها تفسيراً وأنجزها عملاً النبى المرسل ﷺ .

وقامت هذه الأسس على ثلاثة مصادر :

العقيدة – الأسرة – الأخوة الإيمانية .

١ – العقيدة : قائمة على رفض الربوبيات الزائفة أى رفض الباطل والوهم وإقامة الدينونة للإله الحق الذى له وحده الحق فى ربوبية الإنسان ؛ لأنه رب السموات والأرض وما بينهما .

إن إقرار وحدانية الله تبارك وتعالى المطلقة هى ضمان وحدة الشخصية واجتماعها كى لا تتمزق وحدة الأسرة كما لاتتفرق وحدة الأمة .

لا شيء جمع سلف هذه الأمة إلا ما استقر فى صميم العقيدة الإسلامية من وحدانية الله تبارك وتعالى ، ومن ثم جاءت وحدة الأمة قيادة وتوجهاً انطلاقاً من وحدانية الله تبارك وتعالى والاتصال الوحيد بين السماء والأرض .

إن الإسلام شرع الإيمان بألوهية الله تبارك وتعالى أساساً لكل شيء .

٢ – بناء الأسرة : وحين تصل إلى المرتكز الثانى وهو البقاء السوى فإننا نجد أنفسنا أمام نظرية الفرد والمجتمع بناء على أن هناك اتجاهين فى هذا الخصوص فالاتجاه الذى ساد يحدد الإسلام العلاقة بين الطرفين : الفرد والمجتمع علاقة تكاملية ، وهى ليست على استقامة إذا لم تبن على العقيدة الربانية ، فالفرد وحده لا يكتمل فى بنائه الاجتماعى ولا يقوى على تنفس الهواء النقى .

وتعد العلاقة بين الزوجين هى قاعدة النظام الخاص بالبناء المجتمعى ، حيث حث الإسلام على الزواج ونهى عن الفردية ، لأنها أى الفردية تعنى الهرب من تحمل المسئولية ، وإشاعة التفسخ والانحلال .

وقد دعا الرسول ﷺ إلى التركيز على اختيار الزوجة « فاظفر بذات الدين تربت يداك »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى (٩ / ١١٥) ، ومسلم (١٤٦٦) .

ولا يقيم الإسلام قصة الحياة الإنسانية على حساب الجوانب الأخرى ، بل إنه يوقع على أوتار النفس البشرية مجتمعة لكى يصدر من المجتمع .

هـذا بالإضافة إلى أن عناية الإسلام بالطفل بارزة منذ اللحظة الأولى . (محمد الأكحل شرفاء) .

★ ★ ★

ويراعى الإسلام مصلحة الأفراد كما يراعى مصلحة المجتمع ولا يضحى بمصلحة أحدهما على حساب الآخر باسم تفضيل الحرية على العدالة أو العدالة على الحرية ، فالإسلام لا يقبل المساومة فى إحداهما ، بل يسعى إلى تحقيقهما معاً لدى الإنسان .

إن الأزمات الاقتصادية والمالية التى نمر بها من حين إلى حين فى معظم دول العالم سواء منها المتقدمة أو المتخلفة لدليل على مواطن الضعف والفساد التى يتحلى بها هذان النظامان .

تنظيم المجتمع

إن التنظيم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى للجماعات مرتبط بتطور حاجات المجتمع والبيئات المكونة له والتطور السليم للمجتمعات الإسلامية يتوقف على مدى عثورها على صيغ يجمع بين الفعالية العملية التى يجب أن يتمتع بها كل تنظيم بين الخصائص الحضارية المميزة للمجتمع .

ولقد كان النظام الإسلامى قائماً أساساً على :

(**أولاً**) : بناء الأجيال .　　　(**ثانياً**) : بناء المجتمع .

ذلك أن الهدف من التربية الإسلامية إيجاد قاعدة صلبة قوية المناعة ضد جراثيم الجرائم واختيار منبت صالح للبذرة ، وذلك بأن يكون الإيمان بالله تبارك وتعالى هو أساس اختيار الزوجين ، إذ هو الأساس الطبيعى لبقاء النوع البشرى ، وأن تكون الأسرة أسرة مؤمنة فهى أساس كل شىء ، فإذا سلمت سلم المجتمع ، وإذا فسدت فسد المجتمع .

ومن هنا كان اختيار البذرة اختياراً حكيماً . (إياكم وخضراء الدمن)[(١)] .

والتحذير من المرأة الحسناء فى المنبت السوء (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس)[(٢)] .

---

(١) انظر كنز العمال (٤٤٥٨٧) .　　(٢) رواه ابن أبى شيبة (٤ / ٢٦٣) .

وقد أثبت علم الوراثة الجديد أن من بين أسباب الإجرام عامل الوراثة .

وهناك عامل اللقاء بين الزوجين .

(تنكح المرأة لأربع : لمالها وحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك)(١) .

وقد أعطى الإسلام عناية كبيرة لإرضاع الطفل من جانب أمه ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين** ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٣٣] .

كذلك فقد ركز الإسلام عل الحضانة السليمة وقد اهتم الإسلام بالأسرة باعتبارها المجتمع الصغير الذى ينمو فيه الطفل ويترعرع ويكتسب مهاراته .

كما أعطت الشريعة أهمية كبيرة للأسرة فى دورها الوقائى ؛ لأنها تستقبل الطفل وهو مادة خام يتأثر بكل ما يحيط به .

كما اهتم الإسلام بالتعليم السليم انطلاقاً من أن الجهل أخطر الأمراض فتكاً .

★ ★ ★

بينما تجعل المذاهب فى الفكر التربوى مصدر التربية فى العقل أو التأثير الاجتماعى أو الفطرة تجد الفكر التربوى الإسلامى يأخذ فى الاعتبار جميع هذه المصادر ويضيف إليها التوجيه الدينى فبناء الشخصية الإنسانية المستقيمة هى التى تعتبر فيها جميع المصادر ، ولذلك نجد الشريعة الإسلامية توجه عنايتها لهذه المصادر بين طريق الإقدام والنواهى والحدود ، وتخاطب العقل والقلب والنفس اللوامة .

★ ★ ★

والترابط موجود بين التربية والأخلاق عند المسلمين ، والتشريع يدعم الأخلاق ويزكيها .

والأخلاق تساعد كلاً من التشريع والتربية على بلوغ أهدافها التى تلتقى عند توفير الأسباب لتطبيق الشريعة وبالتالى لضمان سعادة الإنسان الدنيوية والأخروية وتمكنه من تحقيق الهدف من وجوده ألا وهو حماية الأمانة والقيام بأعباء الخلافة فى اكتشاف علم الله تبارك وتعالى الواسع وعمارة الأرض مع اعتماد الحق والعدل .

كما أنه يجعل الوقاية مقدمة للعلاج .

---

(١) تقدم تخريجه .

وقد اتخذ الإسلام مجموعة من الاحتياطات ليضع الحواجز أمام إقدام الإنسان على الحرام .

ومن ذلك غض البصر من لدن المرأة والرجل وتحريم ما يسكر والتشهير بالزانى والزانيــة .

★ ★ ★

كما أن الإسلام يجعل ثقته فى الإنسان ، ويفسح له مجال التوبة حتى إنه لا يسعى إلى تطبيق الحدود إلا عنــد التـأكد الكامل ، بل يحث على الستر ويعاقب على القذف (ادرءوا الحدود بالشبهات)[1] .

ويوجه القرآن الإنسان إلى أساليب متعددة منها : إعطاء المثل الأعلى فى العدل .

★ ★ ★

وقد أحاط الإسلام الأسرة بسياج قوى من التحصين تشريعاً وأخلاقاً .

وقد أرضى الزوج والزوجة دينياً فإن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها (كما قال الإمام الحسن بن على – رضى الله عنه –) .

★ ★ ★

---

(١) رواه البغوى شرح السنة (١٠ / ٣٣٠) .

الاقتصاد الإسلامى

إذا كان النظام الاقتصادى الإسلامى يوافق مذهباً من المذاهب فى بعض القضايا أو ذلك ولكنه لا ينتسب إلى هذا المذهب أو ذاك ، لأنه نظام ربانى مستقل فهو أسبق من هذه المذاهب فى الزمن وأرسخ منها قدماً ، وهو أشمل منها دائرة .

لأن هذه المذاهب كلها (الرأسمالية والماركسية) مذاهب مادية .

ويتميز النظام الاقتصادى الإسلامى بعدة عوامل أساسية :

أولاً : أنه يعنى بالإنسان فى جانبه المادى والإسلام يعنى بالإنسان فى جوانبه المادية والروحية والنفسية والفردية والاجتماعية .

ثانياً : يقيم الإسلام الميزان بالقسط بين الفردية والجماعة فهو يقدر الفرد وقيمته وحوافزه وحريته .

ولذلك فهو يقر الملكية الفردية ويقر انطلاق الإنسان فى العمل ولكنه يضع له ضوابط وإطاراً يتحرك فى حدوده فحريته مقيدة وملكيته منضبطة .

إذ هناك ضوابط يفرضها على ملكية المال وتنميته وإنفاقه وتفرض عليه حقوقاً على المجتمع والزكاة كما أن هناك حق على الفرد خصوصاً للفئات الضعيفة قال رسول الله ﷺ : « إنما تنصرون بضعفائكم »[1] . ويجعل للفقراء حقاً فى أموال الأغنياء .

★ ★ ★

يقول الدكتور أحمد النجار : رائد البنوك الإسلامية :

إننى أحد المنادين بتصحيح أخطاء البنوك الإسلامية ومسارها بحيث تلعب دورها فى حياة المجتمع ولا تتعامل كالبنوك العادية مع الأغنياء فحسب ، وإنما تكون أداة لتنمية المجتمع أساساً ، بدأت التجربة فى الستينات بإنشاء بنوك الادخار فى ميت غمر ، نجحت التجربة نجاحاً هائلاً ، ولكنها ضربت فى حدود الجو السياسى المصرفى سنة ١٩٦٧ثم شقت التجربة قنوات لتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية فى مجال المعاملات .

---

(١) انظر كنز العمال (٦٠٤٩) .

وبعد سبع سنين فقط تعالت أصوات عديدة بالتفكير فى إنشاء بنك إسلامى دولى – فى مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامى (كراتشى) ١٩٧٠ وتتابعت البنوك .

ولقد كان العنصر البشرى هو أكبر ثغرة أوتيت منها التجربة ، وكانت الثغرة الثانية هى استعجال الثمرة .

فقد أدى الاستعجال الشديد إلى الاستهانة بكثير من الثغرات المهيئة أثناء العمل .

وكان الهدف الأصلى هو إيقاظ اليأس لدور المال فى ظل المناخ الإسلامى ، وتنبيههم إلى دور المال فى تنمية المجتمع وتذويب الفوارق بين طبقاته وتنبيههم إلى خطر الربا وحرمته وآثاره المهلكة فى المجتمع .

★ ★ ★

الباب الرابع
الشريعة الإسلامية والقانون الروماني

(الدكتور/ صوفي أبوطالب)

يلاقى الشرع الإسلامى مع القانون الرومانى فى أرض البلاد المفتوحة حجة ووسيلة للطعن فى الإسلام ، حيث زعموا أن الشرع الإسلامى ليس إلا تعديلاً للقانون الرومانى .

إنما يهدفون فى حقيقة الأمر إلى بث رسالة غير مباشرة للشعوب الإسلامية تشكك فى الشرع الإسلامى ، وتدعو إلى غض الطرف عن أية قوانين أو أحكام تتعارض أو تصطدم به .

وحجتهم فى ذلك أنه إذا كانت الشريعة الإسلامية ليست إلا تعديلاً للقانون الرومانى فى قواعدها ومادتها وأحكامها فإنه لا تثريب على المشرع فى البلاد الإسلامية من الاقتباس والنقل من القوانين الوضعية المأخوذة من القانون الرومانى حتى لو لم تتفق مع الشرع الإسلامى فى بعض الجزئيات ؛ لأن الأصل أو الأساس لكل منهما هو القانون الرومانى .

وهناك دعوى أن انتشار المجتهدين المسلمين فى البلاد التى فتحها المسلمون مكنهم من الاطلاع على قواعد القانون الرومانى الذى كان مطبقاً فى هذه البلاد ، أهمها مدارس القانون الرومانى فى بيروت والإسكندرية ، حيث استمر تدريس القانون الرومانى فيما بعد الفتح الإسلامى .

هذه الحجج تصطدم بوقائع التاريخ والحقائق العلمية الثابتة ، فمدرسة بيروت لم يبق منها إلا الأطلال سنة ٥٥١ م .

وعندما فتح المسلمون الشام سنه ٦٣٥ لم تكن موجودة ، فكيف يتسنى للمسلمين دراسة القانون الرومانى أو الاطلاع عليه فى مدرسة بيروت التى زالت قبل فتح بيروت بأكثر من قرن من الزمان ونفس القول ينطبق على مدرسة الإسكندرية التى أغلقها الإمبراطور جستنيان عام ٥٣٣ قبل فتح العرب لها بأكثر من قرن من الزمان .

★★★

س : بالنسبة لمدرسة الإسكندرية فربما قد اطلعوا بها على كتب القانون الرومانى حيث ذهب البعض إلى أن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - قد أحرق مكتبة الإسكندرية بإذن من الخليفة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه .

جـ : العرب لم يكن فى قدراتهم الاطلاع على كتب القانون الرومانى عن طريق مكتبة الإسكندرية بسبب أنها لم تكن موجودة عند فتح العرب لمصر وبالتالى لم يحرقها عمرو بن العاص – رضى الله عنه .

المؤكد تاريخياً أن مكتبة المتحف قد حرقت عام ٤٨ ق م . عندما أحرق جوليوس قيصر أسطوله فى مياه الإسكندرية أما مكتبة السيرابيوم فقد أحرقت عام ٣٩ م عندما أحرق تيوفيلوس معبد السيرابيوم . ولو كانت مكتبة الإسكندرية موجودة عند فتح العرب لها لما أغفل ذكر حرقها حنا النيقوس الذى كان قريب العهد بفتح مصر .

وكتب عنه ، ولما أغفل المقوقس الوالى الرومانى النص عليها فى شروط الصلح عن تسليم الإسكندرية .

ونخلص من ذلك أن مدارس القانون لم يكن لها أى أثر فى تكوين عقلية الفقهاء المسلمين .

س : لماذا لا يتأثر الفقه الإسلامى بحركة الترجمة ؟.

جـ : لم يتح للمسلمين فرصة دراسة أو معرفة الشريعة الرومانية ، فى مدارس القانون بالشرق كما زعم المستشرقون وسبب ذلك يرجع إلى هدم تلك المدارس .

س : ما مدى تأثر الفقه الإسلامى بنتاج حركة الترجمة التى قام بها المسلمون للكتب الأجنبية ، والتى كانت فى عهد يزيد بن معاوية ، والتى ازدهرت فى عهد المأمون فى الدولة العباسية ؟.

جـ : لقد عدد ابن النديم فى كتابه « الفهرست »اسم الكتب التى ترجمت والمترجمين ولم يذكر بينها كتاباً واحداً فى القانون ، وفى الوقت الذى أثمرت فيه حركة الترجمة ثمارها فى محيط الفلسفة والأدب والعلوم ؛ وانتقلت فيه الزعامة العلمية إلى مدرسة المعتزلة كان الفقه الإسلامى بمنأى عنها .

س : ماهى الأسباب التى جعلت مدرسة الفقه الإسلامية بعيدة عن التأثر بحركة الترجمة ؟

جـ : إن هناك عدة أسباب أسهمت فى تحقيق هذه النتيجة :

(١) السبب الأول هو أن موضوعات الفقه الإسلامى كانت قد تحددت منذ النصف الأول من القرن الأول الهجرى .

فقد انصرف المسلمون الأوائل كلية طيلة القرن الأول إلى العلوم النقلية التى تعتمد على القرآن الكريم سواء تفسيره أو استخراج الأحكام الفقهية منه ، أما العلوم العقلية كالطب والرياضة فهى لم تزدهر إلا منذ القرن الثانى أيضاً فقد خلف الصحابة ومن جاء بعدهم ثروة ضخمة من الأحكام والحلول القانونية التى وضعوها للمسائل التى عرضت عليهم فى مختلف فروع القانون .

وقد كانت هذه الأحكام من الكثرة والدقة بحيث أمكن معها القول بأن مضمون الفقه الإسلامى قد تحدد من الوجهة الموضوعية منذ النصف الأول من القرن الهجرى الأول فى جعل قواعد التشريع الإسلامى بمنأى عن التأثر بأى قانون أجنبى ؛ لأن تلك القوانين وضعت بمناسبة حالات فعلاً فى المجتمع الإسلامى فى ذلك العهد .

ولسبب آخر لعدم تأثر الفقه الإسلامى بحركة الترجمة بسبب جوهرى هو اكتمال قصة مدرستين من أهم مدارس الفقه الإسلامى وهى المدرسة الحنفية والمدرسة المالكية .

أيضاً عدم ترجمة أى كتاب فى القانون الرومانى إلى لغة معروفة من العرب قبل القرن الثالث عشر الميلادى .

ذلك أن الفقه الإسلامى يعتمد أساساً على الكتاب والسنة ومن ثم يمتنع عن الفقهاء المسلمين استعارة أى مبدأ قانونى أو قاعدة قانونية من تشريع أجنبى .

إن كتب المنطق والفلسفة التى ترجمت كان لها أثر آخر هو صقل عقلية فقهاء القرن الثالث ومكنتهم من الإفادة من دراسة المنطق وطريقة تقديم الحجة والبرهان أو ترتيب الأفكار المتشابهة .

ولم تكن أصول الشريعة الإسلامية تسمح للفقهاء بالبحث عن أصول القواعد القانونية من غير الأدلة الشرعية المعروفة فى علم أصول الفقه ، لذلك كان أثر المنطق الإغريقى على الفقهاء المسلمين محدوداً لأن القياس ، وهو أهم مجال لإعمال المنطق كان معروفاً منذ القدم .

أما تأثر الفقهاء بالكتب المترجمة عن اللغة السريانية ، والتى كانت سائدة فى الشام قبل فتح المسلمين لها فرغم أهمية تلك اللغة وأثرها فى محيط الأدب والفلسفة لم يكن لها أدنى أثر فى مجال القانون لقد خضع نصارى الشرق لأحكام الإسلام باستثناء بعض مشاكل الزواج والطلاق حيث كانوا يطبقون القانون الكنسى الذى اعتمد أساساً على

الإنجيل وكتابات آباء الكنيسة أما الترجمة السريانية فقد حدثت بعد اكتمال فقه مدرسة الحنفية أكثر المدارس أخذاً بالرأى فقد توفى الإمام أبو حنيفة ٧٦٧ م .

أما الترجمة العربية فقد تمت بعد نضوج واكتمال الفقه الإسلامى . جميع مدارسه .

القانون الدولى والشريعة الإسلامية

هى تعاليم جاء بها النبى ﷺ والخلفاء ، فاستطاع الفقه أن ينسخ منها نظرية متكاملة فى القانون الدولى سبقت بها الشريعة الإسلامية المجتمع الدولى بأكثر من ألف عام .

وتؤكد هذه التعاليم أن قواعد القانون الدولى لا تخرج عن عباءة الإسلام بأى حال ، بل إن الكثير من قواعده تجد مصادرها فى هذا الدين الحنيف .

مثلاً يقارن بين وصايا الخليفة أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - لقائد الجيش العربى المتجه إلى فتح الشام : أسامة بن زيد - رضى الله عنه - وبين نظام البروتوكول الأول لسنة ٧٧ الملحق بأحكام اتفاقيات جنيف الأربع .

قال أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - : « لاتخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لأكله » .

ويقول بروتوكول القانون الدولى : أن لا يكون السكان المدنيون محلاً للهجوم .

وأن تحظر مهاجمة أو تدمير المواد الغذائية أو المناطق الزراعية والمحاصيل والماشية .

وكذلك يجب أن يكون النساء موضع احترام خاص والأمر يتحقق بالحماية لاسيما ضد الاغتصاب والإكراه على الدعارة .

وفى المقارنات جاء قرار الخليفة العباسى المعتصم بالله حين استولى على حصون أرمينيا بعد معركة حربية فأمر ألا يفرق بين أعضاء العائلات التى وقعت فى الأسر بنفس المبدأ .

★ ★ ★

وقد وصى الإمام على جنوده : إذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ، ولا تتخذوا داراً إلا بإذن ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً ، ولا تعدموا النساء .

وقد سبق صلاح الدين بتصرفه (كتاب النوادر السلطانية والمجالس اليوسفية) لبهاء ابن شداد حيث نرى أن صلاح الدين الأيوبى يسبق بسلوكه المادة ٢٧ من اتفاقية جنيف

لعام ١٩٤٩ ، الخاصة بمعاملة أسرى الحرب والتى تقول : « تزود الدولة الحاجزة أسرى الحرب بكميات كافية من الملابس والملابس الداخلية والجوارب بحيث يكون ملائماً لجو الإقليم » .

قصة الإسلام : دين ودولة

يقول الأستاذ فهمى هويدى :

ناقشت كثيراً من الناس ، ومنهم بعض أساتذة الجامعة فرأيت أن التطور العصرى ليس قادراً على هضم كلمة « دين وسياسة واجتماع » .

والسر فيه أن التعاليم الأوروبية والحياة الأوروبية فى الفكر الأوروبى قد حال بينهم وبين فهم الجمع بين الدين والسياسة والاجتماع ، بل يقولون : إن الروحانية وما يتصل بها هى الدين ليس إلا كالصلاة والذكر والدعاء وما إليها .

أما السياسة وما يتصل بها والاقتصاد وما يتعلق به ، والحكم وما يدعو إليه ، فليس من الدين فى شىء

حتى قالوا : إن الحج والزكاة ليسا من الدين .

فكرت فى هذا طويلاً ثم قلت لهم :

سلمت لكم أن الدين شىء والسياسة شىء آخر، ولكن هناك شىء اسمه (الإسلام) وهذا الإسلام قانونه القرآن فإن سلموا لنا بهذا فنسائلهم : ما قولكم فى قوله تعالى :

﴿ **وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٧٥] .

وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه** ﴾ .

[سورة البقرة ، الآية : ٢٨٢] .

﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٥٨] .

أليس هذا من الدين؟ فإن أصروا على عنادهم فنقول لهم : إن الله تعالى أمر بها ، ثم ماذا تقولون فى قوله تعالى : ﴿ **وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم** ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٠٢] .

هل هناك حرج فى الدين وهو ينظم الجندية ويجعل للحرب صلاة خاصة ؟ .

وكذا فى قوله تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٦٠] .

أليس هذا من صميم الدين ؟ وهو تنظيم القوة للدفاع عن الإسلام ثم هو فوق ذلك (بروتوكول) ؟ : قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون * فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم** ﴾ [سورة النور ، الآيتان : ٢٧ ، ٢٨] .

هذا هو الإسلام الذى لم يغادر صغيرة ولا كبيرة حتى الأكل والشرب : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾ [سورة الأعراف ، الآية ٣١] .

والإفساح فى المجالس : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم** ﴾ [سورة المجادلة ، الآية : ١١] .

فكلمة الدين التى أتعبتهم لم تكن سوى الإسلام الذى جاء بكل هذا فنقول لهم : فماذا تسمون القرآن ؟ فإن قالوا نسميه الدين نقول : اتفقنا والخلاف لفظى .

ونحن مطالبون باتباع هذا الدين وإن راوغوا وقالوا : إن هذه المعانى جاءت للأمة العربية ؛ لأنها أمة لا مدنية لها ولو جاء للفرس والرومان ما تعرض لهذه المعانى : لقول الله تعالى : ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض** ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٨٥] .

فهل قال الله تعالى هذا للعرب وهذا لغيرهم أم قال : هذا العام للهجرة وهذا لألف منها ؟ .

فإن قالوا : إن المجتمع قد تطور وما يصلح للعصر الأول لا يصلح لعصرنا هذا فنقول لهم : إن الإسلام وتعاليم الإسلام صالحة لكل زمان ومكان وأن من محاسنه أنه لم يتدخل فى تفاصيل الأحكام كلها وترك ذلك لتطور الزمن .

قال عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - : « تحدث للناس أقضية بقدر ما يحدثون » ، وقد ألف الإمام الشافعي مذهبين : قديم وجديد وهناك المصالح المرسلة فالإسلام وضع الأساليب فى السياسة والاقتصاد والاجتماع وضعاً محكماً لاحرج فيه على أحد .

﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ [سورة الحج ، الآية : ٧٨] .

★ ★ ★

مجموعة حقائق حول النظام الإسلامى

(إجابات فهمى هويدى)

أولاً : اشتمال القرآن الكريم والسنة النبوية على نظام الحكم .

القرآن رسالة هداية تقيم مجتمعاً ، وإن نظام الحكم جزء من هذه الرسالة فليس مطلوباً أن نتحدث عن تفاصيل عامة وإنما جاء بنظام (الشورى) التى تركت ليقوم عليها النظام السياسى ليصوغها كل مجتمع حسب ظروفه وبالتالى لامجال للطعن فى صلاحية الإسلام .

والمؤكد أن النبى ﷺ أقام دولة وكان هناك نظام حكم ، وهناك بيت مال ، وإدارة ومؤسسة عسكرية وفتوحات وحضارة .

ثانياً : الحديث عن السلطة السياسية .

ليس فى الإسلام سلطة دينية وهذه السلطة تمارسها مؤسسة دينية ، وليس فى الإسلام مؤسسة دينية ولا توجد فى الإسلام كنيسة .

قال الشيخ محمد عبده منذ مائة عام : إن أحد الأركان التى جاء بها الإسلام ؛ هو هدم فكرة السلطة الدينية .

ثالثاً : فصل الدين عن السياسة .

هذه دعوى تنطلق من أطراف ليست لها علاقة بالمعرفة الإسلامية وما يجرى فى العالم الآن ، لأن البابا يعمل عملاً سياسياً اليوم فى كل أنحاء العالم .

كيف يمكن فصل أى عمل عام عن العمل السياسى ؟

رابعاً : لماذا يسمح بقيام أحزاب مسيحية ديمقراطية فى أوروبا ولا يكون فى بلادنا أحزاب إسلامية ؟

وهل يعقل أن يسمح فى بلد إسلامى بقيام حزب شيوعى وحزب علمانى وحزب قومى وحزب ناصرى بينما يمنع قيام حزب إسلامى ؟ خاصة أنه موجود بالفعل شئنا أم أبينا .

فإذا حاد الحزب عن رسالته فإنه يحاكم بالميثاق أو بالقانون .

خامساً : الإسلام لم يبين ماهية الرب .

هذه مسائل تناَقشها مجامع علمية ولا سيما مجالها أهل الهوى أو الصحف اليومية .

سادساً : ما يقال إننا لسنا بحاجة إلى تطبيق الشريعة فهى مطبقة بالفعل : إن الشريعة الإسلامية ليست قوانين أو حدود فقط ، ولكنها تكاليف للمجتمع ، وبالتالى عندما يزعم زاعم بأن الشريعة الإسلامية مطبقة فإنى أقول : إن هناك بعضاً من الشريعة مطبق كمسائل الأحوال الشخصية ، ولكن يبقى ألا نقع فى أسر مفهوم الشريعة كقانون فالشريعة أكبر من هذا بكثير .

وأنا أسأل أين الشريعة الإسلامية فى حياتنا الثقافية والإعلامية والفنية ؟

سابعاً : الإسلام هو الحل : هذا شعار .

ويوضع تحت الشعار أسس ومبادئ التطبيق العملى والذين رفعوا شعار « الإسلام هو الحل » ، وضعوا تحته ست عشرة نقطة تتضمن أسساً ومبادئ تعالج الأمور الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

ثامناً : عدم وضع حلول واضحة لبعض المشاكل .

لا توضع حلول وإنما يوضع إطار أساسى .

- الديمقراطية أساس البناء السياسى .
- السكن حق للجميع .
- النظام الاقتصادى ينبغى أن يتوافر فيه عدالة التوزيع .

كل مشروع سياسى يبدأ بأفكار مجملة وإطار أساسى احتك بالتجربة بعض الوقت .

★★★

أهم الحقائق :

(١) ضرورة توافر الحيدة فى البحث العلمى .

(٢) أن تكون المصادر المعتمدة عليها غير مشبوهة خاصة إذا كانت من كُتّاب قضوا حياتهم جميعاً يعملون فى إطار الحركة الشيوعية التى لقيت منذ ولدت دعماً متواصلاً من الاتحاد السوفيتى والحزب الشيوعى السوفيتى .

★★★

إسهام الإســلام
فى بناء القانون الدولى العام

لقد اعتقد بعض رجال القانون أن كلمة (العلاقات الدولية) بمفهومها الحديث لم يكن له وجود قبل مؤتمر ويستفاليا عم ١٦٤٨ ولكن هذا الرأى ينبنى فى رأى المنصفين على منطلق تاريخى غير سليم فإن العلاقات الدولية ظهرت منذ فجر التاريخ باعتبار أن الجماعات الإنسانية مدفوعة إلى الدخول فى علاقات مع بعضها البعض لتحقيق أغراضها وضمان أمنها .

ونحن هنا سنقتصر على مدى إسهام الإسلام فى بناء القانون الدولى العام وهو رأى الإسلام الذى يقول على لسان القرآن الكريم ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولوشاء الله لجعلكم أمة واحدة** ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٤٨] . صدق الله العظيم .

لقد كان الإسلام يهدف إلى توحيد البشرية فى ظل نظام دولة واحدة تعتمد على الشريعة الإسلامية ، وقد مر فعلاً فى سياق تطوره بمراحل مختلفة بدءاً بالدولة فى المدينة ليشمل بالتدريج الجزيرة العربية والبلاد المجاورة لها ثم مناطق أخرى كثيرة فى القارة الآسيوية والأفريقية والأوربية .

وقد كان من شأن هذا أن يثرى ذلك التطور على مدى العصور القانون الدولى الإسلامى ويجعله مرجعاً مهماً لأصول القانون العام وهنا يجب أن نعترف بما أفاض به فقهاء الشريعة الإسلامية ، وما قدمه المفسرون من قواعد عامة فى شأن العلاقات مع الدول الإسلامية ، وما عالجوه من مواضيع فى مؤلفاتهم الخاصة ، وأذكر هنا كتاب « السير » لمحمد بن الحسن الشيبانى الذى يعتبر مرجعاً أساسياً فى هذا الباب .

إن مثل تأليف الشيبانى لا يدع مجالاً للشك فى أن الفقه الإسلامى كان أول فقه يهتم بالقانون الدولى ثمانية قرون قبل ظهور (هيكوكروستيوس) الذى سموه أبا القانون الدولى ، وقد اشتملت الشريعة الإسلامية فعلاً على ضوابط وأحكام تكون نظاماً متكاملاً لم يصل القانون الدولى لمثله إلا بعد مرور أحقاب من الزمن .

وإذا كانت المعاهدات الثنائية المتعددة الأطراف تعتبر المرجع الأساسى لأحكام القانون العام فلابد أن نذكر فى صدر أعمال النبى ﷺ (اتفاقية يثرب) ذلك الميثاق

العظيم الذى عقده بالمدينة عقب هجرته إليها ، وهو ميثاق تعايش وحسن جوار يجمع بين عدد كبير من القبائل والطوائف المتساكنة من المهاجرين والأنصار واليهود .

ويعتبر هذا الميثاق من أقدم الدساتير وأمتعها وأحقها بالنظر والتقدير وأولاها بأن يذكر فى أصول العلاقات بين الناس وبين مخالفيهم فى الدين أو فى الانتماء القبلى .

(اتفاقية يثرب تضم سبعمائة وسبعين كلمة - تسعون فقرة) وكان من بنود هذا الكتاب :

« ولا ينصر مؤمن كافراً على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة يجير عليها أدناهم ، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وأن سلم المسلمون واحدة وأن يهود بنى عوف أمة من المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ » .

★ ★ ★

ومن هذه الفقرات نرى حضور المبادئ السامية التى تضمنتها معاهدة يثرب ، مما نرى اليوم القوانين الدولية تسعد به وتدعو إليه :

(١) مبدأ تساكن الأديان .

(٢) مبدأ حسن الجوار والمساواة بين الناس كيفما كانت أجناسهم وأصولهم .

(٣) مبدأ فض المنازعات عن طريق الحوار والتحكيم .

★ ★ ★

وتعتبر قضية الالتزام بما تم عليه الاتفاق من القضايا الأساسية التى لا تتساهل فيها تعاليم الإسلام .

ومن ثم وجدنا أن معظم الأحاديث النبوية تدعو إلى احترام العقد واعتباره أمراً مقدساً لايجوز لأحد تجاهله (فلا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة أن يتجاوزها) ومن المهم أن أذكر هنا بآية شريفة سحرت رجال القانون العام وقد وجد فيها الفقهاء خير معبر عنـه :

﴿ وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا علي قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ .

[سورة الأنفال ، الآية : ٧٢]

★★★

وإلى جانب هذا نجد الاهتمام بالاتفاقيات الشفوية .

ولابد أن نذكر هنا ماورد فى معاهدة صلح الحديبية الذى نص على مدة عشرة سنوات كأمد أقصى عند ما حصل الاتفاق المبدئى على عدد من البنود التى ستكون منها هذا البند الخامس : (على أنه من أتى محمداً ﷺ من قريش بغير إذن واليه رده عليهم ومن جاء ممن مع محمد ﷺ لم يردوه عليه) .

★★★

المعاملة بالمثل :

مبدأ آخر من المبادئ التى عرفها القانون الدولى ونعنى به مبدأ المعاملة بالمثل ، ونجد أن السنة النبوية غنية بالآثار التى تدعو إلى احترام هذا النوع من السلوك الإنسانى .

تحرير الإنسان من الخوف :

إذا كانت المصطلحات الجديدة اقتضت أن يطلق على الجهر بالحق كلمة التحرر من الخوف أو حرية الرأى فإن من حقنا أن نلفت النظر إلى أثر من الآثار النبوية تعتبر نبراساً فى باب التعامل الدولى مما يتصل باحترام الرأى والدعوة إلى التخلص من الخوف عند إبداء وجهة نظر ما .

ويتعلق الأمر بالحديث الشريف الذى روى عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال رسول الله ﷺ : (لا يحقرن أحدكم نفسه ، قالوا يارسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : يرى أمراً لله عليه فيه مقال ثم لايقول فيه فيقول الله - عز وجل - لهم يوم القيامة : ما منعك أن تقول فى كذا وكذا ؟

فيقول : خشية الناس فيقول الله : فإياى كنت أحق أن تخشى)[١] .

★★★

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٠٨) .

الديمقراطية فى مفهوم الإسلام

(للدكتور / عبد القادر عودة)

إن نظام الحكم الإسلامى يختلف عن الديمقراطية فى أنه يقيد الحاكمين والمحكومين بقيود تمنعهم من الانطلاق وراء الأهواء ، وتحول بينهم وبين الخضوع للشهوات .

وحقيقة الأمر أن الديمقراطية مجرد وسيلة عمل ، ومجموعة حقوق وضمانات الهدف منها تحقيق وظيفة محددة هى وصول أصحاب الأغلبية الحقيقية للحكم .

ومن هذه الحقوق مثلاً حق الاقتراع العام وحق التمثيل السياسى أى الانتخاب والترشيح من هـذه الضمانات مثـلاً تحديد فترة الرئاسة ، وفصل السلطات ، والتعددية الحزبية ، ومبدأ الشرعية أو المشروعية ، وحرية الصحافة ، وهكذا أى أن مهمة الديمقراطية ومسئوليتها تنتهى عند وصول أصحاب الأغلبية الحقيقية للحكم ، أما الذى حدث فى الغرب من الانطلاق وراء الأهواء وخضوع للشهوات وتقنين الحرام وتحريم الحلال فسببه ليس الديمقراطية ، وإنما هوية أصحاب الأغلبية هناك ، وما حدث لهم بعد تورثهم على الكنيسة ، وترجمة الكتاب المقدس بما وقع فيه من تحريف وتأثرهم بمبادئ وأفكار وفلاسفة ملاحدة من نوعية دوركايم وفرويد وماركس ، وأخذهم على اختلاف مشاربهم من رأسماليين واشتراكيين وشيوعيين بفكرة فصل الدين عن الدولة أى العلمانية .

أما فى مجتمع مسلمى اليوم فيكفى فقط أن يصدق المسئولون لديه فى تطبيق الديمقراطية دون تزيد كما تطبق فى بلادها .

وحينما تقول الأغلبية الحقيقية لأصحابها لن يسمح أعضاء الزمان صاحب هذه الأغلبية لإباحة وتقنين حرام أو تحريم حلال بأى حال .

إن الديمقراطية وسيلة وكل ما استحدث من حقوق وضمانات مقبولة فى شرع الله مادمنا فى النهاية نحقق مصلحة عامة ومؤكدة ولا يردها نص ثابت من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

إن جوهر الديمقراطية وصول الأغلبية الحقيقية للحكم . وهذا أهم مقاصد الشريعة ومن مصلحة الإسلام والمسلمين حيثما كانت المصلحة فثم شرع الله .

(فاروق عبد السلام) .

الباب الخامس
الشريعة والقانون الوضعي

منذ حل الاستعمار فى بلاد الإسلام عمل على إقامة النظام السياسى على القانون الوضعى ، وحجب الشريعة الإسلامية .

وقد ظلت مصر فى ظل القانون الفرنسى (١٨٨٣ إلى ١٩٤٦) حين وضع قانون مصرى نقل من قوانين المحاكم المختلطة إباحة الربا الاقتراض بفائدة - إيقاف عقوبة الزنا والخمر .

ومنذ عملت القوى الإسلامية الأصيلة على إحياء الشريعة الإسلامية والقيام بتقنين الشريعة الإسلامية أخذت قوى العلمانية وخصوم الإسلام على قيادة الحملة على الشريعة الإسلامية .

والادعاء بأن الإسلام لم يطبق إلا فى حكم الخلفاء الراشدين كما ادعى البعض أن هناك محاولة لإقامة دولة دينية بينما لم يعرف الإسلام هذه الحكومة أبداً .

والواقع أن الشريعة الإسلامية ظلت مطبقة حتى وصول حملات الاستعمار ، وقد شهد بذلك كتَّاب « وصف مصر » الفرنسيين وأشار إلى ذلك الجبرتى فى « تاريخه » .

أما الإسلام فإنه لم يعرف شعار الحكومة الدينية وإنما عرف الحكومة الإسلامية ، وأن الإسلام دين ودولة ، ونظام كامل للحياة ، ولم يعرف الإسلام مصطلح (رجل دين) على هذه الصورة التى عرفتها أوروبا حيث لا وجود لها على الإطلاق .

كذلك فإن فكرة تطوير الشريعة هى فكرة باطلة ومضللة ويرجع هذا الخلط إلى العجز عن فهم الفارق الدقيق بين الشريعة والفقه .

فالشريعة هى نصوص القرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة وهى نصوص بلغت كمالها واكتمالها منذ اختار الرسول ﷺ الرفيق الأعلى .

والتطور معناه الانتقال من طور إلى طور ، فلا محل للقول بذلك . أما القول بتطوير الفقه الإسلامى فهو وارد إذا صح القصد ، إذ أنه عمل إنسانى وهو مجهود علماء المسلمين لفهم نصوص الشريعة ، واستنباط الأحكام منها سواء كانت تتعلق بالجزئيات أم القواعد الكلية التى تتفق مع أهداف هذه النصوص العامة فى القرآن والسنة .

وهكذا نجد أن كل ما يثيره خصومه الشريعة الإسلامية من شبهات لا تثبت أمام التحليل العلمى والبحث الصحيح ، وأنها كلها محاولات يراد بها تأخير تطبيق الشريعة أو وضع عقبات أمام خطوات التطبيق .

★ ★ ★

وليس صحيحاً أن الأخذ بمبادئ الشريعة الإسلامية يعتبر رفضاً للعصر ، فهذا تصور خاطئ لا يقوم على أساس ، وليس عليه أى دليل .

إن الذى يميز الإسلام هو أنه لايتعارض مع العقل ولا مع العلم ، لأن الله تبارك وتعالى الذى أنزل القرآن هو الذى خلق العقل ، وأن القرآن لم يتناقض مع العلم ، فالإسلام دين الفطرة الذى يخاطب العقل والوجدان معاً ، ولقد اعترف فقهاء القانون فى العالم كله بفضل وسبق وأصالة الشريعة الإسلامية ، وقالوا : إنها قادرة على معالجة قضايا الإنسان المعاصر ، وقادرة على حفظ الأمن والأمان للمجتمع فى عصر زادت فيه الجريمة بمعدلات مختلفة .

★ ★ ★

هناك أمور ضرورية تعتنى بها الشريعة الإسلامية بينما يسكت عنها القانون الوضعى كما هو الحال فى شرب الخمر ، وأمور ضرورية تهتم بها الشريعة اهتماماً بالغاً فى جميع صورها بينما لايتناولها القانون الوضعى إلا فى حدود ضيقة كما فى حالات الزنا فالشريعة فى ذلك أكثر إحاطة من القانون الوضعى ، وأكمل تنظيماً ؛ لأنها بحكم كونها ديناً يتعقب كل ما تؤخذ عليه الأخلاق ؛ وذلك بمعنى أن الإسلام دنيا ودين .

★ ★ ★

وقال الشيخ محمد أبو زهرة : لتطبيق الشريعة ليس علينا أن نهدم هذه القوانين كلها بل علينا تغيير قوانين الحدود والقصاص والقوانين الربوية .

وذكر أن هناك ٥٦ مادة تحتاج إلى التغيير منها ٤٤ مادة فقط فى قانون العقوبات .

يقول الأستاذ حسن البنا : وكيف يملك البعض إرادة البعض ويقيد هذه الإرادات ويسمو عليهم ويفرض عليهم القواعد والنصوص ؟ . كيف يمكن أن يكون من البشر إلى البشر ؟ من يعطى حق التشريع ؟ لابد أن تكون هناك جهة أعلى من البشر هى التى تمنح البشر قوانينها ؟ .

لحـق :

قامت لجنة تقنين الشريعة الإسلامية (مجمع البحوث الإسلامية) بتحضير مشروع دستور إسلامى يكون أساساً تكوين هذه اللجنة ١٩٦٨ .

وقد قامت اللجنة بتقنين فقه المعاملات على المذاهب الأربعة واضعة هذا القانون فى صورة دراسات وقوانين ليكون مرجعاً فى حالة تطبيق الشريعة الإسلامية فى أية دولة قدمت حلولاً ومقاييس لكل ما فى الحياة العامة من نظم ، وما يجد فيها من معاملات :

١ – سعر الفائدة المصرفية وغيرها من أعمال البنوك .

٢ – الحكم فى التأمين والاستثمارات المالية .

٣ – المؤسسات المصرفية والتجارية .

كما أعد مجمع البحوث مشروع دستور حضرته لجنة تقنين الشريعة ليكون تحت طلب أى دولة ترغب فى أخذ الشريعة منهجاً .

الشورى لا الديمقراطية

الشورى هى الفريضة السياسية فى الإسلام :

ماتمتاز به الشورى عن الديمقراطية للحاكم ، ووصولاً إلى الشكل المؤسسى الذى يمكن أن تطبق به الشورى فى عصرنا الحاضر فى الإسلام ضرورة الشورى مشاركة الناس فى صنع القرار المشاركة فى الغرب حق للإنسان أن يتنازل عنه ، أما فى الإسلام فهو واجب شرعى .

تكون الشورى أقرب ما تكون فرضاً للطرفين الحاكم والرعية ، فعلى ولى الأمر أن يطلب مشورة الناس وعلى الرعية أن تفرض حقها فى هذه المشورة أو فى إبداء الرأى بوجه أو بآخر ، لأن المجتمع هو عقد غير مكتوب بين أفراده وبين شرائحه لبناء شكل معين من أشكال الأنظمة ، يقوم على تعاون أفراده للوصول به إلى ما ينبغى ، أو يريد الجميع .

وفى الإسلام يتم ضبط العلاقات بين :

١ – الحاكم والمحكومين .

٢ – بين الأغنياء والفقراء .

٣ – بين الأقوياء والضعفاء .

والشورى ترتبط أساساً بقضية الحرية ، ولا يمكن الحديث عن الشورى فى ظل مجتمع يفتقد الحرية .

وعندما ننظر إلى الإسلام والديمقراطية باعتبارها إفرازاً غريباً نجد أن هناك مستويين من المعانى :

أولاً : الشورى تمثل قاعدة دين وهى تعبر عن الظاهرة المطلوب القيام بها من حيث هى سلوك يجب أن يتبع عند اتخاذ القرار .

وتنطلق الديمقراطية فى المشروع الغربى من إطلاق العنان لحرية الإنسان دونما ضوابط شرعية وإلهية فى مجتمع علمانى أما الشورى فتعنى مشاركة الأمة ، ففى الشورى الإسلامية الأمة قضية السلطان ، لكن هذا السلطان محكوم بإطار التعديل الذى نسميه مقاصد الشريعة وهنا تتجلى الوسطية الإسلامية ، فهى لا تحرم الأمة من السلطان ، ولا تطلق العنان دون قيود ، سلطة مشاركة الأمة تصنع حياتها بشرط ألا تحل حراماً أو تحرم حلالاً ، لذلك فنحن مأمورون بأن نشيد بهذا المعنى .

﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩] .

الديمقراطية تنصرف أساساً إلى نظام فى بناء المؤسسات وهناك فارق بين التنظيم الشورى والتنظيم الإسلامى فالنظام الإسلامى لم يعرف السلطة التشريعية ، وإنما عرف الوظيفة القضائية ، ووظيفة التنفيذ ، لأن السلطة التشريعية هى أمر مكفول من عند الله تبارك وتعالى من القرآن والسنة النبوية الصحيحة ، فالحاكم عندما يعين القاضى لايحدد له قانوناً ، وإنما متى عينه فقد استمد ولايته فى القضاء من القانون الذى يطبقه ، وهو من القرآن والسنة مباشرة .

★★★

والشورى أسلوب حياة فى الأسرة وفى المدرسة وفى المصنع وفى أى مجتمع مهما صغر ، أما الديمقراطية فقد نشأت كنظام حكم سياسى ، هذا هو الفارق الكبير مع اتحاد الهدف من الاثنين وهو ضبط حركة المجتمع بحيث يزول التناقض مابين الأفراد والطوائف .

ويستطيع أن ينمو هذا المجتمع على أساس استقراره ، فالشورى فى الإسلام إذن هى أسلوب حياة متكامل بدليل أن هناك آيات كثيرة تكمل فريضة الشورى ، إنها الفريضة السياسية فى الإسلام .

هناك ثلاث فرائض :

الفريضة الدينية هى الصلاة عماد الدين .

الفريضة الاجتماعية وهى الزكاة .

والفريضة السياسية وهى الشورى .

★ ★ ★

أما الديمقراطية فى النظام الغربى فهى حق من حقوق الإنسان حيث يستطيع الإنسان بإرادته واختياره أن يتنازل عنه ، لكن إذا كانت الشورى فى المفهوم الإسلامى فريضة إلهية وواجباً شرعياً ليس من حق الإنسان أن يتنازل عن المشاركة فى شئون أمته .

(من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم)[١] .

والشورى فى الإسلام نصيحة (الدين النصيحة) .

قالوا : لمن يارسول الله ؟

قال : « لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم »[٢] فتقديم الشورى هنا هى فريضة النصيحة . ومعناها أن الشخص يقدم الرأى لخير الأمة بعد أن يبحثه من جميع جوانبه بموضوعية كاملة .

وقد أشار النبى ﷺ : « أن من حق الحاكم على المحكوم أن ينصحه » .

والشورى فى الإسلام ملزمة ، وليس معلمة فحسب .

والشورى مطلوبة كمكرمة ، ومطلوبة فى التطبيق كمعلمة .

★ ★ ★

يهدف الإسلام أساساً إلى إقامة دولة التوازن بين الفرقاء الممثلين للتعددية فى مجتمعها ، فالتوازن هو الوسط أى العدل بين الفرقاء المتعددين .

وإقامة التوازن بين عدل ولاة الأمور وطاعة الأمة وشورى الأمة فى الدولة الإسلامية مقيدة بسيادة وحاكمية الشريعة التى هى وضع إلهى ، وهى ملزمة لدولتها وهى ضرورة شرعية واجبة ، وليس مجرد حق يجوز لها أن تتنازل عنه إذا أرادت ذلك ، وهى ملزمة للحاكم حتى ولو كان نبياً أو رسولاً .

---

(١) رواه الحاكم (٤ / ٣١٧) .

(٢) أخرجه مسلم (٥٥) .

﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩] .

إن حق الطاعة الذى للدولة على الأمة يظل مشروطاً ومرهوناً ببقاء الدولة ممثلة للأمة وموضع الرضا منها .

ويركز الإسلام على أخلاقية الوسائل فى التعامل وضبط المصلحة والمنفعة حتى تكون المصلحة الشرعية المقيدة ، وليست المصلحة المطلقة المتحررة من أخلاقيات الإسلام .

★ ★ ★

ويشير بعض الباحثين أنه ليس هناك أى وجه للمقارنة بين الشورى فى الإسلام وبين الديمقراطية المستمدة من النظم الغربية ، فالشورى هى صلب نظام الحكم الإسلامى .

والله تبارك وتعالى يقول لرسوله الكريم ﷺ :

﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ [سورة آل عمران الآية : ١٥٩] .

ويقول : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ [سورة الشورى ، الآية : ٣٨] .

هذه الشورى هى من صنع الإسلام وهى أعمق فى العدالة من الديمقراطية الغربية التى انتحلها المسلمون فى هذا العصر تقليداً للغرب ، وأخذوا منهجه حتى نسوا الله فأنساهم أنفسهم .

إن الشورى كنظام حكم إسلامى جاء كمبدأ فى القرآن الكريم ، طبقه الرسول ﷺ حتى أنه عندما شاور صاحبيه أبا بكر وعمر – رضى الله عنهما – فى أمر من الأمور قال لهما : ((لو اجتمعتما على رأى لم أخالفكما))(١) . فأى وضوح لمعنى الشورى ومفهومها أكثر من هذا ؟ .

الإسلام وقوانين البحار

إن معظم الذين تحدثوا عن قانون البحار ، بل كلهم وحتى من العرب والمسلمين المعاصرين كلفوا أنفسهم عناء البحث حول أصول هذا القانون عند اليونان والرومان وقدماء المصريين والصين والهند ، ولكنهم لم يكلفوا أنفسهم الالتفات إلى بعث الآثار النبوية حول بعض حوادث هذا القانون .

---

(١) رواه أحمد (٤ / ٢٢٧) .

وقد جاء حديث رسول الله ﷺ فى هذا الأمر :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ؛ فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فحدثتهم نفوسهم قائلين : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا »[(١)] .

وقد تلخص هذا الموقف فى تصوير أن تنفيذ مثل هذا الهاجس من شأنه أن يلحق ضرراً بالجميع ، أو بالذين يوجدون فى أعلى السفينة ، وبالذين يوجدون فى أسفلها ؛ ولذلك فإن الإسلام يمنع إلحاق الضرر وهذا لفظ الحديث « فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجو ونجوا جميعاً » .

ألا يمكن أن يعتبر هذا الحديث النبوى لبنة من اللبنات الأولى فى قانون البحار ؟

★ ★ ★

هذه بعض الوثائق المتقدمة فى التاريخ الإسلامى :

١ - وثيقة الأمان التى أبرمها عبد الله عمر أمير المؤمنين مع أهل إيلياء (بطارقة القدس) والتى تنص على إعطائهم الأمان لأنفسهم ولأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود .

٢ - كتاب عياض بن غنم لأسقف الرها : (أنتم فتحتم لى باب المدينة) فأنتم آمنون على أنفسكم وأولادكم ومن يتبعكم ، عليكم إرشاد الضال وإصلاح الجسور والطرق ونصيحة المسلمين (وعلى مثل هذا الصلح صالح أهل آمد وأهل ميافارقين وكفرنوثا) .

٣ - اتفاق الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان مع ملك بيزنطة فى شأن تعمير مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة حيث بعث الملك إلى الخليفة بمائة ألف مثقال ذهباً ومائة عامل وأربعين حملاً من الفسيفساء حملت إلى والى المدينة آنذاك عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - .

٤ - اتفاقية الصلح بين الأمير عبد العزيز بن موسى بن نصير بالأندلس « ولا يكرهون على دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا يؤوى لنا عدواً ولا يخوف لنا آمناً » .

(عبد الهادى التازى - ٨ يوليو ١٩٨٩ جريدة العلم المغربية) .

★ ★ ★

---

(١) رواه البخارى (٥ / ٩٤) .

الإسـلام والعـلوم عامـة

مفهوم (العلوم) فى الإسلام يختلف اختلافاً عميقاً عن مفهوم العلوم فى الغرب ، حيث يعتمد أساساً على اختلاف مفهوم علم الاقتصاد + ملف العلوم ، مفهوم النفس والأخلاق ، العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية .

المنهج الإسلامى :

١ – يبدأ من الكون كله ويبدأ بخالق الكون .

٢ – يضع الإنسان فى مكانه الحقيقى بوصفه مستخلفاً فى الأرض فليس الإنسان مجرد آلة ، كما أنه ليس دمية تحركها روح العلم .

٣ – ليس هناك حتمية تاريخية تقود الإنسان إلى مصير ما ، فأعمال الإنسان المختارة هى السبب فى صنع التاريخ وهو المسئول عن حركته ، وليس مجرد ضحية القوانين ساذجة محدودة تنطلق به من مرحلة إلى مرحلة .

٤ – الحياة فى مفهوم التاريخ الإسلامى لاتتقوقع فى دائرة الاقتصاد أو البيولوجيات ، وإنما يسمو بغاية الإنسان إلى آماد عالية .

حيث يقوم الإنسان بإقامة المجتمع الربانى .

ويعيش الإنسان على الأرض فترة اختبار ليثبت الإنسان أنه على مستوى الاستخلاف .

٥ – حركة الإنسان فى الحياة مرتبطة بقوانين الله تبارك وتعالى وسننه فى تيسير الحياة وبقوانين النمو .

وتسير الحياة على التعاون أكثر من الصراع .

الصراع سمة مرحلة من عوامل الحياة ، ولكنه ليس السمة العامة المسيطرة على حركة التاريخ .

★ ★ ★

اختار الإسلام لتفسير قضية الحرية الإنسانية حلاً وسطاً بين نظريتين متناقضتين : هما نظرية الجبرية الذين ينفون ظاهرة الحرية نفياً مطلقاً والنظرية التى تقول بالحرية الشاملة .

أن الإنسان حر فى تصرفاته ، ومسئول عن أفعاله ، فهو ليس لعبة للقدر كما يدعى بعضهم ، وليس كذلك أداة مسخرة للإرادة الإلهية ؛ للإنسان إرادة داخل إرادة الله الكبرى ، ويحاسب على عمله وفق مسئولية الفرد وحرية الاختيار .

وليس هناك قانون جبرى يحكم حركة الإنسان وإلا لما كان هناك ثواب وعقاب وحساب وليس حركة الكون إلا ضوابط للسير ، وفى داخل هذه الضوابط يستطيع الإنسان أن يجد كل حريته وكل إمكانات الحركة وفقاً لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ [سورة البلد ، الآية ١٠] .

فباستطاعة الإنسان أن يتحرك فى أى نجد يريده فى طريق الخير أو طريق الشر وقوانين الكون التى وضعها الله تبارك وتعالى تسمح له بهذه الحركة .

★ ★ ★

الوسطية الإسلامية :

يقول الدكتور / محمد عمارة : الإنسان المسلم ليس المجبر الذى لا حول له ولا طول ، وليس الحر دون حدود أو قيود وهو حر فى إطار قدرته واستطاعته .

وهو حر من حيث إنه مستخلف فى الأرض ملتزم ومقيد بشريعة الله تبارك وتعالى .

وهو حر فى إطار عقد الاستخلاف والإنابة .

ودولة المسلم ليست الدولة الدينية التى تنفى كون الأمة مصدر السلطات ، وليست الدولة العلمانية التى تبيح لسلطات الأمة تجاوز عقد الاستخلاف بإباحة الحرام وتحريم الحلال ونظامه الاجتماعى هو الذى يتوسط بين النظام الطبقى ليس النظام الاجتماعى الذى ينكر التمايز الطبقى فى المجتمع وإنما هو النظام الذى يتوسط بين النموذجين ، فالإسلام دين الجماعة والمسئولية فيه فردية من فروض العين ، واجتماعية من فروض الكفاية ، والتمايز الطبقى فى مجتمعه حقيقة تمثل الفطرة الإنسانية فى تفاوت القدرات والملكات .

والعلاقة بين هذه الطبقات لابد وأن يحكمها التوازى أى العدل فكل طبقة تعتمد على الأخرى .

فإذا اختل ميزان العدل بين الطبقات ، فإن الوسطية الإسلامية ترفض الظلم وأيضاً ترفض الصراع .

(**التعددية فى إطار الوحدة**) :

دين الله واحد وشرائعه متعددة بتعدد أمم الرسالات السماوية : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة** ﴾ [سورة المائدة ، الآية ٤٨] .

الوسطية الإسلامية رفضت الجمود وهى ترفض الحداثة التى تقتلع الجذور وتطمس الهوية وتقطع التواصل الحضارى عندما تسوى بين الثوابت والمتغيرات .

ترفض هذه الحداثة كما ترفض التحجر والجمود .

كما تميز بين المشترك الإنسانى العام الذى لا يتغير ، وبين الخصوصيات الحضارية والثقافية .

حيث تختلف كل حضارة من حيث مكوناتها ومواريثها .

والسؤال هو : ماهى القسمات الرئيسية التى ميزت ثقافتنا الإسلامية فى طور أصالتها عن غيرها من ثقافات الأمم والحضارات الأخرى ؟

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الوسط العدل » (١) ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً** ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٤٣] .

والكرم توازن وعدل بين الشح وبين الإسراف والتبذير ، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور .

﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس** ﴾ .

[سورة البقرة ، الآية ١٤٣]

ليست التوسط المعزول عن الطرفين أو القطبين ، إنها موقف جديد ولكنه لايعنى قطبى الظاهرة المدروسة موقف جديد يتألف من عناصر الحق والعدل فى القطبين معاً ومن هنا تكون موازنة ثقافتنا وحضارتنا بين العقل والنقل فهى لاتنحاز لواحد منها دون الآخر ، كذلك المؤاخاة بين الحكمة والشريعة باكتشاف مابينهما من الاتصال .

تقرن النقل بالعقل ، وتحكم غرور العقل فيما لايستقل بإدراكه بالأدلة النقلية التى جاءت من صاحب العلم المحيط والكلى عالم الغيب والشهادة والجمع بين كتاب الوحى المقروء وكتاب الكون المنظور والجمع بين الوحى وعلومه ، والوجود وعلومه الطبيعية .



---

(١) رواه أحمد (٣ /٣٢) .

الفرق بين قهر الطبيعة والتسخير الإلهى :

ما يقال من أن الإنسان فى عصر العلم قد قهر الطبيعة وذللها ، وأنه قد أخضع المادة لمعرفته ونصره ، وأنه قد صار سيد الكون ، وأصبح مستغنياً بنفسه ، قائماً بذاته حتى كتب بعض الملحدين فى ذلك وألفوا .

كما تجد فى كتاب جوليان هلسكى الموسوم : (الإنسان يقوم وحده ولم يعد فى حاجة إلى إله يعينه) .

ويضربون الأمثلة على قهر الطبيعة بأنواع الصناعات وفنون التعدين واستخدام الطاقة الكهربائية والنووية وغيرهما .

كما يضربون الأمثلة أيضاً فى علوم الحياة بالتقدم الملحوظ فى الإنتاج الحيوانى فالإنسان لم يعد فى حاجة إلى انتظار مطر السماء ، وذلك بعد أن فجَّر ينابيع الأرض ، وأفاد من مياهها الجوفية أو مياه أنهارها الجارية ، وفجرها أمام السدود .

لقد سخر الله تبارك وتعالى الحجارة والجبال والأنهار وسخر الله تبارك وتعالى المعادن وقابلية الحديد للطرق وإسالة الحديد ﴿ **وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين** ﴾ .

[سورة الشعراء ، الآية : ١٤٩]

الحقيقة أن وراء هذا الكون قوة مدبرة وإرادة مسخرة بها ذل لنا وقهر لمصالحنا .

ولسنا نحن الذين سخرناه ورتبناه على ما هو عليه فقد أتى عليها حين من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً .

ونصوص القرآن فى هذا الصدد تصرح بكلمات التسخير والتمهيد والتذليل ، وهى تنسب جميعاً إلى الله – عز وجل .

★★★

علم السنن والقوانين الاجتماعية والكونية والبشرية :

سواء ما يشير إليه القرآن أو السنة أو ما يوحى به التطور التاريخى والحضارى الإسلامى .

يقول الدكتور / عبد الحليم عويس : هناك سنن إلهية أشار القرآن إليها تتعلق بالكون ، وهناك سنن اجتماعية أشار إليها القرآن كذلك ، وفيه سنن تتعلق بالنفس البشرية يمكن أن نجدها فى القرآن .

وهناك سنن كونية واجتماعية ونفسية تحكم حركة الفرد والإنسان والمجموع ، ومن يقلب صفحات تاريخنا بين قوة وضعف يجد شواهد ، وقد تناول بعض أقطاب فكرنا الإسلامى هذه السنن فى دراساتهم .

منهم : ابن خلدون فى ميدان التاريخ والاجتماع ، وابن تيمية ، وابن القيم فى مجال السياسة الشرعية .

يقول السيد رشيد رضا : (الجزء الرابع من المنار) إن إرشاد الله إيانا إلى أن له فى خلقه سنناً توجب علينا أن نجعل من هذه السنن علماً أرشد إليه القرآن بإجمال ، وبينها العلماء بالتفصيل .

★ ★ ★

آيات الله فى الآفاق :

لو كانت الأرض فى حجم القمر لعجزت عن الاحتفاظ بالغلاف الجوى والماء ، ولصارت درجة الحرارة فيها قاسية إلى حد الموت .

ولو كانت الأرض فى حجم الشمس مع احتكاكها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التى عليها ١٥٠ ضعفاً ، ولانكمش ارتفاع الغلاف الجوى من ٥٠٠ ميل إلى أربعة أميال ، وأصبح تبخر الماء مستحيلاً ، ولارتفع الضغط الجوى إلى ما يزيد على ١٥٠ كيلو جراماً على السنتيمتر المربع ولتضاءل جسم الإنسان إلى حجم الفأر الكبير ولتعذرت الحياة لمثل هذه المخلوقات ، ولو أزيحت الأرض إلى ضعف بعدها الحالى عن الشمس لانخفضت كمية الحرارة التى تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية ويعنى هذا تجمد المحيطات والبحار ، وتعلق الأرض كلها خلية تسحق الحياة وتقضى عليها ، ولو بقيت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ماهى عليه الآن لبلغت الحرارة التى تتلقاها الأرض أربعة أمثال وهذا يعنى أن تتبخر المحيطات والبحار والأنهار وتموت الأرض من الحرائق .

والسؤال هو من المسئول عن انضباط قوانين الحركة وانسجامها بحيث لاتصطدم النجوم بالنجوم ، ولا تبتلع الشمس الأرض ، ولا يتحطم القمر . وهو يصطدم بالأرض ؟ : هو الله تبارك وتعالى : ﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده** ﴾ [سورة فاطر ، الآية : ٤١] .

أما خلايا مخ الإنسان فتبلغ ستة آلاف مليون خلية .

الإسلام والقضاء على الرق :

قضى الإسلام على الرق وجفف منابعه ، ومن بينها استرقاق العاجز عن سداد الدين فالغى الإسلام كل الألوان ما عدا أسرى الحرب خضوعاً للضرورة التى لافكاك منها .

قال رسول الله ﷺ : « إخوانكم خولكم فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يطعم ويلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم »[1] .

وفتح الإسلام الباب لعتق الأسرى حين جعل ذلك لمن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ، كما حدث فى موقعة بدر .

ونص القرآن على أن كفارة بعض الذنوب فى عتق الرقاب وكفارة القتل الخطأ ، وجعل المكاتبة وهى منهج الحرية للرقيق متى طلبها فى مقابل مبلغ من المال يتفق عليه مع سيده .

★★★

(١) رواه البخارى (١ / ١٤) .

الباب السادس
عقائد الإسلام

(١) **عقائد الإسلام ثلاثة** : عقيدة التـوحيـد .

عقيدة الرسالة .

عقيدة البعث .

وأعلى العقائد : عقيدة التوحيـد والإيمان بالله تبارك وتعـالى .

يقول أبو الأعلى المودودى :

الإيمان بالله : بأنه موجود ، وبأنه واحد ، وبأنه الخالق لهذا الكون ومالكه وحاكمه ومسيِّره ، وبأن الكون قائم بإمساكه إياه وسائر بتسييره إياه ، وهو الذى يولى كل شىء فيه ما يحتاج إليه من الرزق أو القوت لبقائه ، وهو الذى يتسم بجميع الصفات الحاكمية لايشاركه فيها أحد ولو بمقدار قطمير .

وهو الذى يتصف بجميع صفات الألوهية ولا يملك أحد غيره أية صفة من هذه الصفات ، وهو بصير بكل ما فى السموات والأرض ، عليم بكل شىء فيهما علمياً مباشراً لايحيط بحاضره فحسب ، بل بماضيه ومستقبله أيضاً ، ليس لأحد غيره هذه العين التى تبصر الجميع ، وهذا العلم بالغيب الذى يحيط بكل شىء ، وهو قائم من الأزل وباق إلى الأبد وكل من سواه فان ، وهو الواحد الحى بحياته والباقى ببقائه ، لم يلد ولم يولد وكل مافى السموات والأرض مخلوق له ، وليس لأحد فيهما أن يقول هذا رب الكون أو ابنه أو ابنته بأى معنى من المعانى ، وهو المعبود الحقيقى للبشر وإشراك غيره فى عبادته لهو أعظم الجرائم وأكبر أنواع الخيانة ، وهو الذى يجيب دعاء الإنسان وله الخيار « أن يستجيب له أو لا يستجيب وأن يمتنع الإنسان عن الدعاء إليه كبراً بغير حق ، أو يدعو معه إلهاً آخر أشركه فى ألوهيته فهو جهل محض .

(٢) **عقيدة الإيمان بالرسالة تأتى بعد عقيدة التوحيد** :

يقول أبو الأعلى المودودى : فالرسول ﷺ شخص ينزل الله تعالى قانونه على البشر

بواسطته ويصلنا هذا القانون من الرسول الكريم ﷺ بصورتين :

(**أولهما**) : وحى الله تبارك وتعالى بنفس الألفاظ التى نزل بها على الرسول وهو القرآن .

(**وثانيهما**) : الأقوال والأعمال والأوامر والنواهى التى توجه بها الرسول ﷺ إلى أتباعه وفق تعليمات الله تبارك وتعالى ، وهى (السنة) وأهمية هذه العقيدة أنها إذا لم تكن ، يبقى الإيمان بالله فكرة جوفاء وتصوراً مجرداً .

والسعى الذى يسوغ عقيدة الإيمان بالله فى قالب الحضارة والمدنية ونظام الحياة البشرية هو توجيه الرسول الفكرى والعملى إذ بواسطته يصلنا قانون الله تبارك وتعالى وهو الذى يبنى قواعد الحياة تبعاً لمقتضى هذا القانون ؛ ولذلك لا يصير الإنسان مسلماً إلا إذا آمن بالرسالة بعد إيمانه بالله تبارك وتعالى .

★★★

(٣) عقيدة الإيمان بالبعث هى الحقيقة التى تربط الدنيا بالآخرة فالإنسان يعيش فى هذه الدنيا لأمرين : لحياته فى الدنيا وللحياة الأخرى وعمله فى الدنيا هو الذى سيقرر حياته فى الآخرة ، تلك الحياة الطويلة القائمة على أن تكون الدنيا هى التى تهب الإنسان مكانه بين الجنة أو النار فى الآخرة .

★★★

التوحيد فى الإسلام له ذاتية خاصة :

يختلف توحيد الديانات غير السماوية عن ديانات السماء ، وتعلو فكرة توحيد الإسلام على كل أنواع التوحيد (سواء أكان توحيداً صحيحاً جاء به الرسل عن الله تبارك وتعالى أم توحيد السيادة والغلبة) وتوحيد الإسلام لا سيد ولا مسود فى رحابه .

وأخطأ جولد زيهر المستشرق اليهودى المجرى الذى زعم أن محمداً أخذ عقيدته الدينية من اليهودية أو المسيحية أو من غيرهما ذلك أن عقيدة التوحيد عند نبى الإسلام ﷺ تخالف ما عند غيره من يهود ومسيحيين ووثنيين .

ويرجع خطأ جولد زيهر إلى أن تبشير النبى العربى ليس مزيجاً من معارف وآراء دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها (على حد قوله فى كتاب العقيدة والشريعة) وهو وهم باطل يهدمه الحق وواقع التاريخ .

والمنطق والعقل والواقع ينفى استقاء أى فكر دينى فى رحلته كما أنه لم يجادل كفار مكة إلا بعد النبوة ، بل إن مشركى مكة من قريش يقولون : إن محمداً أخذ مزاعمه من غيره من العجم .

﴿ ولقد نعلمُ أنهم يقولون إنما يعلِّمه بشر لسانُ الذى يُلحدونَ إليه أعجمىٌ وهَذا لسان عربىٌ مبين ﴾ [سورة النحل ، الآية : ١٠٣] .

كذلك لم يكن الكتاب المقدس لليهود قد ترجم فى هذه الفترة إلى العربية .

والفوارق كبيرة بين الكتاب المقدس والقرآن فى عدة أشياء أهمها أن الله تبارك وتعالى فى الإسلام رب العالمين واحد أحد لاشريك له ولاند ولا شبيه ولا مثيل ولا صاحبة ولا ولد وكامل كمالاً مطلقاً منزهاً عن كل النقائص أما فى الديانات اليهودية والمسيحية ليس واحداً بل هو ثالث ثلاثة فى المسيحية والبرهمية والبابلية ، وفى اليهودية واحد يتكرر ويتعدد وله أشباه ونظائر يعرف إلههم بالواحد المسمى (يهوه) بآلهة آخرين ، وإن كانوا لايعبدونها .

★ ★ ★

ومن أبرز الحقائق أن التوحيد ليس وليد التطور العقلى ، فقد دأب الباحثون على تصوير نشأة العقيدة بأن التوحيد هو آخر مراحل تطور الألوهية ، وهم يظنون أن العقل البشرى ظل يترقى حتى وصل من تعدد الآلهة وعبادة قوى الطبيعة إلى مرحلة التوحيد ويرى البعض أن أخناتون هو أول داعية للتوحيد ، ومن خطأ الاعتقاد أن العقيدة بدأت بعبادة قوى الطبيعة بالرمز عليها فى صورة تماثيل أو أنصاب وانتهت إلى وحدة أخناتون البشرية .

والحقيقة أن البشرية بدأت موحدة ثم انحرفت عن الطريق السوى .

وتؤكد كل الأبحاث الجادة المعتمدة على القرآن والسنة ، أن التوحيد الخالص لم يعرفه إلا الإسلام الذى أنكر جميع أنواع الشرك والتعدد ، ولم يجعل بين الله تبارك وتعالى ، وبين الإنسان حائلاً أو وسيطاً : **﴿ وإذا سألكَ عبادى عنى فإنى قريبٌ أجيبُ دعوة الداعى إذا دعانِ ﴾** [سورة البقرة ، الآية : ١٨٦] .

ويقول برنارد شو فى : (قصة الزنجية تبحث عن الله) : إن محمداً خطا خطوة كبيرة إلى الأمام عندما أحل ديانة التوحيد فى محل عبادة الأصنام ، ودعا إلى إعادة النظر فيما أحاط الأديان السابقة له من الشوائب ، وإلى التعرف على الجوهر الصحيح فيها ، إن الوصية الثانية من وصايا الله تبارك وتعالى المذكورة فى التوراة والتى تقول : (لا تصنع لك تمثالاً

منحوتاً ولا صورة من الصور ولا تسجد لها ولا تعبدها) .

هذه الوصية تجد احتراماً من المسلمين أكثر مما تجد من المسيحيين .

ويقول الدكتور / إبراهيم بيومى مدكور : إن مفهوم التوحيد الذى يقدمه الإسلام ، والذى ما نزال نتطلع إليه فى العصر الحديث : هو المفهوم القرآنى الخالص على نحو ما عرف فى الصدر الأول من المؤمنين بالإسلام بعيداً عن الخوض فى النظريات الفلسفية والأساليب المنطقية التى درج عليها المتكلمون .

وبعيداً عن المصطلحات الفلسفية المعقدة والكلمات الفنية الجامدة التى تكد الذهن وتتعب العقل واستقاء العقيدة من النبع الصافى لا لبس فيه ولا غموض .

★★★

إن إفراد الله تبارك وتعالى بالعبودية هو فى الحقيقة والواقع رفض العبودية لأى كائن سواء فى الأرض أو فى السماء وتحرر مأمون من سلطان النفس الأمارة بالسوء .

إن عبودية الإنسان هى لله وحده هى طريق حريته وخلاصة من القيود الآثمة ، ولن يكون له حرية عزيزة محبذة بدونها أبداً إن أخطر أنواع العبودية المعاصرة هى عبودية الإنسان لأهوائه وشهواته التى أهبطت مستواه الخلقى والاجتماعى والحضارى وعبودية للأفكار الجاهزة المستوردة المدفوعة لوسائل الدعاية المغرية التى عطلت طاقاته الفكرية والمعنوية أو جمدتها عل الأقل .

إن العبودية لله تبارك وتعالى هى طريق التحرر الإنسانى ، هى قضية الإسلام الأولى المعروضة علينا فى كل زمان ومكان وهى ترتكز فى نفوسنا وأفكارنا .

★★★

إن الاعتقاد بالتوحيد الخالص يقيم تراثاً نافعاً ومهماً للطبيعة الإنسانية هو أن أتباع هذا الدين يسهل لهم الاعتقاد بأن جميع الأشياء فى العالم مرتبطة حسب قانون واحد بغض النظر عن الخلافات والتفاصيل فحيث تكون علة الكون واحدة يكون القانون واحداً ، وأن كل تقدم فى مفهوم الإسلام يجب أن يقوم على التحرر من عبودية غير الله تبارك وتعالى ، ومن كل سلطان غير سلطانه ، وأن تجرى حركة التقدم كلها فى إطار أخلاقى .

ذلك أن جميع وسائل التطور هى عبارة عن مواد خام قد تستورد لسد الحاجات ،

ومن الممكن أن تجرى عليها عملية سبك وتحويل وانصهار لتخرج إلى القالب الذى يتفق مع كيان الأمة وروحها .

★★★

المطالبة بتطبيق الشريعة أكبر مظاهر الصحوة الإسلامية :

تطبيق الشريعة الإسلامية فرض وضرورة ، بمعنى أننا لسنا فى خيار بالنسبة للشريعة بعد أن رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً ، وبالقرآن إماماً ومنهاجاً .

﴿ وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسولُه أمراً أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم ﴾ [سورة الأحزاب ، الآية : ٣٦] .

فهى فريضة وضرورة بعد تجربتنا للشرائع والأنظمة الأخرى ، والتى لم تسعدنا من شقاء ، ولم تقونا من ضعف ، ولم توحدنا من فرقة ولم تؤمنا من خوف ، ولم تطعمنا من جـوع ، ومازلنا نتخبط من رأسمالية إلى اشتراكية إلى ثورية لنذهب إلى اليمين وإلى اليسار .

ونحن محلك سر ؛ لهذا لابد لنا من الرجوع إلى الإسلام وإلى شريعته ، وهذا يتطلب منا أولاً فهم الشريعة الإسلامية الفهم الصحيح ، فهناك سوء فهم لها فبعضنا يقول : « الشريعة الإسلامية القصد منها الجانب القانونى فيها فقط وخاصة جانب العقوبات إلى الحدود » .

وهذا فهم قاصر ومبتور للشريعة الإسلامية ، والحدود يقيناً من الإسلام ، ولكن ماذا تكون من شريعة ورسالة الإسلام ، فالشريعة الإسلامية تنطلق بمعناها الواسع .

(**العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات**) .

يتعلق بالتشريع الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والدولى ، ولابد أن نأخذ الإسلام متكاملاً لاينفصل بعضه عن بعض . فمثلاً لايجوز أن آخذ السارق وأقطع يده فى الوقت الذى لم أعلمه فيه ما هو الإسلام وماهو السلوك الفاضل الذى يجب أن يسلكه ، وفى الوقت الذى لم أوفر له الحياة الكريمة والقدوة الصالحة فكيف أقطع يده قبل جلب الزكاة من الأغنياء لإعطائها للفقراء وقبل إقامة تكافل اجتماعى حقيقى فهذه الأمور مترابطة بعضها مع بعض ، ولذلك لايجوز التركيز على جانب ، وترك جانب آخر فقبل تطبيق الجانب التشريعى عامة ، والجانب الجنائى خاصة لابد أن نربى على الإسلام أى التربية

الإسلامية منذ الحضانة ، والذى يبدأ من الأسرة أولاً ثم الدراسة على مختلف مراحلها ، فالجامعة لتكوين الشخصية المسلمة التى تعرف الحق وتحب الخير وتسلك السلوك الحسن ، وتخشى الله عز وجل فى معاملاتها فنحن نريد هذه التربية المتكاملة : نريد العمل الفكرى لمطاردة الغزو الفكرى الذى تقوم به الجامعات والمؤسسات الفكرية ، وأيضاً العمل الإعلامى تقوم به أجهزة الإعلام لتقرير القيم الإسلامية فى المجتمع ، وغرس الأفكار والمشاعر الإسلامية ولكن حينما نقول : إن تطبيق الشريعة المقصود منها هو تغيير القوانين إلى قوانين إسلامية وكأننا لو جعلنا ذلك لقام المجتمع المسلم ، واستأنف الحياة الإسلامية من جديد فقد نفعل هذا ولا يقوم المجتمع المسلم وتطبق الشريعة الإسلامية لا يتغير شيء .

نحن نريد تغيير الأمور من جذورها : تغيير العقلية النفسية ، السلوك نريد إنساناً سوياً مسلماً مستقيماً على أمر الله يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، يرضى الله والدار الآخرة لا يريد علواً فى الأرض ولا فساداً سواء أكان محكوماً أم حاكماً ، فإن وجدنا ذلك المفتاح فتحت لنا الكثير من المغاليق ، فإذا فهمنا الشريعة بهذا المعنى لاتوجد أى مشكلة .

فهناك الكثيرون لايكرهون الشريعة الإسلامية إنما يخافون سوء الفهم والتطبيق ، لذلك لابد أن نشيع الفهم المتوازن لنتقى تحريف المغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين للشريعة الإسلامية حتى يصلوا لتطبيق كامل متوازن وينفذوا شريعة ربهم حتى يرضى الله عنهم ولايكونوا من الفاسقين أو الظالمين أو الكافرين إذا لم يحكموا بما أنزل الله كما قال تعالى : ﴿ **... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ ... ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ ... ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ . [سورة المائدة الآيات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧] .

★★★

ماهى التحديات التى تواجه تطبيق الشريعة وكيف يمكن التغلب عليها ؟ العالم الإسلامى موجود على الخريطة جغرافياً لكنه مازال يفتقد هويته الإسلامية وذاتيته ، فلا وجود له إلا بالإسلام ، فهو بالإسلام كل شيء ، وبدونه لا شيء ، وانتصار العالم الإسلامى وتحقيق ذاته لايكون إلا حينما يصير الإسلام أساساً لحياتنا فكراً وخلقاً وتشريعاً ونظاماً للحياة .

إن الإسلام لم يأخذ حقه فى توجيه هذه المجتمعات والتشريع لها نتيجة لعوامل كثيرة بعضها من رواسب عصور التخلف الأخيرة عند المسلمين ، والبعض الآخر نتيجة

للغزو العسكرى والسياسى والفكرى والتشريعى والاجتماعى للغرب وأخطر أنواع الغزو : هو الغزو الفكرى الثقافى الذى يحتل العقول والأفكار ، وهذا النوع من الغزو لايعمل فقط مع عامة الشعوب ، وإنما يعمل أيضاً مع القادة : قادة الفكر والسياسة ، فهو يصطفيهم لنفسه ، ويصنعهم على عينه ويربيهم على يديه ليقودوا الجماهير ، وهم يتركون الشعوب والجماهير فى غفلتها مشغولين بلقمة العيش وبهموم الحياة مركزين فهمهم فى صنع القادة لينفذوا خططه ، وليقودوا الشعوب بعد ذلك لما يريده الاستعمار لا لما يريده الإسلام .

★ ★ ★

كيف يواجه العالم الإسلامى هذا الغزو؟ ثم ما هو دور علماء المسلمين فى هذه المواجهة ؟

مواجهة الغزو الفكرى تتطلب منا معرفة ما هو الغزو الفكرى؟ ومن هم الغزاة ؟ ومن هم عملاؤهم ورجالهم ؟ ثم ماهى أهدافهم ؟ فهل يهدفون الأسرة أو المجتمع أو الأمة الإسلامية ككل ؟ فالمعرفة هى أول الطريق لمحاربة شيء نجهله ، أى معرفة ماذا نقصد بالنسبة لفكرة الدين من حيث هو عقيدة وشريعة وحضارة وتاريخ معرفة موقفه من القرآن الكريم كمصدر أساسى ، ومن السنة باعتبارها المصدر الثانى ، ومن السيرة النبوية وشخصية الرسول ﷺ والصحابة ، وأيضاً معرفة الغزو الفكرى للغة العربية باعتبارها أداة الوعى والوعاء الثقافى للإسلام واللسان المشترك للتفاهم بين المسلمين ، ثم معرفة الأسلحة المستخدمة هل تستخدم المدرسة ؟ ، وفى أى المراحل ؟ أم تستخدم الجامعة ؟ أم تعتمد على وسائل الإعلام ؟ ، أى معرفة نوعيات الأشخاص التى يستخدمها الغزو الفكرى للهجوم على الإسلام . علينا دراسة هذا الغزو دراسة واعية للتمييز بين ما يقبل وما يرفض عليهم ثم بعد الدراسة تأتى مرحلة التخطيط فلم يعد هناك عذر فى القول بأن الصهيونية تخطط والصليبية والماسونية والشيوعية والتبشيرية تخطط لنا ، فلماذا لا نخطط كما يخططون كما يقول سيدنا أبو بكر – رضى الله عنه –: حاربهم كما يحاربونك ، السيف بالسيف والرمح بالرمح والنبل بالنبل.

فإن كانت حربهم عن طريق المدارس ، فلتكن لنا مدارسنا أو عن طريق الكتاب فلنحارب بالكتاب ولنعمل كما يعملون ، فإن لم نفعل كما يفعلون تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ، فلابد من التلاقى والتشاور لمقاومة هذه التيارات وتحرير المسلمين من آثارها .

العلمانية صورة من صور الغزو الفكرى فما هى العلمانية ؟ وكيف نحمى الشباب المسلم من الغزو العلمانى ؟

العلمانية يقصد بها الفصل بين الدين والمجتمع ، والدين والدولة أى يكون الدين فى واد ، والدولة فى واد آخر ، والقرآن فى واد ، والسلطان فى واد آخر ، وهذا فى الواقع فكر يرفضه الإسلام تماماً .

فالإسلام ينظر إلى الإنسان باعتباره وحدة لا تنفصل فيها الروح عن المادة فهو كيان واحد وهذا ما يقرره أيضاً علم النفس كذلك ينظر الإسلام إلى الحياة كأنها كيان واحد .

ومن هنا جاء الإسلام ليخاطب الكيان الإنسانى كله ويوجه الحياة الإنسانية كلها ، وليس فى الإسلام كما فى النصرانية (دع ما لقيصر لقيصر ، ودع مالله لله) .

لاتنقسم الحياة بين الله ، وبين قيصر ولا بين الدين الذى تمثله الكنيسة والدنيا التى تمثلها الدولة .

وكذلك فالعلمانية بمعنى عزل الدين عن الحياة والمجتمع والدولة مرفوضة فى المنطقة الإسلامية وفى الدين الإسلامى هى فكرة دخيلة علينا وأساسها غربى ، وهى أن الكنيسة فى العصور الوسطى تدخلت فى الفكر الحر ، وفى الحياة وقاومته ، ووقفت من الملوك ضد الشعوب ومع الأمراء ضد الفلاحين ومع الجمود ضد التحرر ، وقامت محاكم التفتيش لكل عالم مبتكر ، ولكل ذى فكر حر ، وأحرقت الكتب والجثث وما عملية محاكم التفتيش مسجل ومدون وتفتخر به بطون كتب التاريخ ، ولذلك حينما انتصرت النهضة الحديثة انتصرت على حساب الكنيسة والدين .

مقولة لاسياسة فى الدين ولا دين فى السياسة مرفوضة :

للأسف هناك من يريد نقل مافى الغرب كله ، وهذا خطأ فلا يجب قبول ونقل الحضارة الغربية كلها كما لا يجب رفضها ككل بل أخذ ما يلائمنا أخذ الجانب المادى والتكنولوجى والتنظيمى والإدارى والحضارى لنعرف كيف ننظم الشئون الإدارية ، ولا مانع من أن نأخذ ما نحافظ به على الصحة ويمنع الوباء ، فالرسول ﷺ أخذ من بعض أساليب الفرس فى قضية حفر الخندق حول المدينة ، ولم يكن ذلك من أساليب العرب أيضاً ،

وحين استعان الرسول ﷺ بنجار رومى لبناء منبر لخطبة الجمعة بدلاً من جذع النخلة الذى كان يخطب عليه الرسول ﷺ .

أى لامانع من أخذ الأساليب والوسائل التى تيسر على الناس الحياة لكن لا نقبل تلقى الأفكار والقيم والتشريعات والفلسفات الغربية أيضاً نحن لا نقف ضد العلم ، فالعلم عندنا دين ، والدين عندنا علم ، ورجال الفكر والفلسفة والعلماء والأطباء كلهم نشأوا نشأة دينية ، ويعلمون العلوم الدينية مثل الخوارزمى وابن رشد وغيرهم . وعزل الدين عن التشريع والسياسة والتعليم .

أما قول « لاسياسة فى الدين ولا دين فى السياسة » فمرفوض إسلامياً .

أما عن القول بتفضيل الاتجاه العلمانى على الاتجاه الإسلامى ، فالقول بأن العلمانية تجمع المواطنين جميعاً دون تفرقة ولا طائفية ولا عصبية دينية ، فهذا القول مردود ، فالاتجاه العلمانى دائماً يعارضه من الناحية القومية البحتة أقليات ترى أن لنفسها قومية غير قومية الأغلبية فإذا كان الكتابى يقبل الحكم العلمانى لأنه غير ملزم بشريعة . ولأن كتابه يقبل قسمة الحياة بين قيصر والله « دع مالقيصر لقيصر ومالله لله » فالمسلم مادام مسلماً لايقبل ذلك لأنه مقيد بشريعة مفصلة تحدد له منهاج حياته من أدب المائدة إلى بناء الدولة ، وشئون الخلافة أو الإمامة العظمى ؛ لأن الحياة عنده لا تقبل القسمة بين الله وبين أحد غيره فقيصر وغيره والناس جميعاً عباد الله .

ويجب أن يخضعوا لأمر الله وشرع الله ، والحكم العلمانى بطبيعته ضد رغبات المسلمين ؛ لأنه ضد التزامهم بعقيدتهم وشريعة ربهم .

فكيف يقال : إنه يجمع المواطنين جميعاً وهو يعارض دين الأغلبية واتجاهها ؟

أما القول بأن الحكم العلمانى لا مجال فيه لطائفية ولا عصبية دينية مما يفهم أن الحكم الإسلامى يثير التفرقة الطائفية والعصبية الدينية ، فالأمثال على ذلك كثيرة فلبنان بلد علمانى الحكم ، ولا تزال الطائفية فيه على أشدها ولا يزال المسلمون يشكون من سوء نصيبهم فى مناصب الدولة ومغانم الحكم حتى انتهى الوضع إلى الحرب الأهلية الأخيرة التى جرت الخراب على الجميع والتى يأسف لها كل من له دين وعقل ، وفى الهند تقوم المذابح الرهيبة بين الحين والآخر مثل مذابح السيخ والهندوس ولهذا تسقط الدعوى القائلة بأن الحكم العلمانى لايدع مجالاً للتفرقة الطائفية ولا العصبية الدينية ، أما الاتهام الثانى

فهو اتهام الحكم الإسلامى بالتعصب الدينى ، فهو اتهام ظالم ليس له أساس من شريعة الإسلام ولا من تاريخه أما شريعة الإسلام فحسبنا قوله تعالى :

﴿ لا ينهاكم اللهُ عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تَبَروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقْسطين * إنما ينهاكم الله عن الذينَ قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من ديارِكم وظاهروا على إخراجكم أن تَولوهُمْ ومن يتولهم فأولئك هُمُ الظالمون ﴾ [سورة الممتحنة ، الآيتان : ٨ ، ٩]

أما حماية الشباب المسلم من العلمانية ولا يقوم هذا على أساس مجرد الخطب والعاطفة ، بل يجب تعريفه أولاً بالعلمانية والإسلام ، ولماذا قامت فى الغرب ؟ وهل هناك سبب أو أساس لقيامها عندنا ؟ وإذا قامت فما أضرار قيامها على مجتمعنا ؟ وهل يمكن أن نعيش بدون الإسلام ؟ وما أثر الإسلام فى حياتنا الفردية والجماعية ؟ فالتعريف الحقيقى بالإسلام سيحميه من سموم العلمانية .

فالشباب المسلم محتاج إلى توعية بالجانب الفكرى وبالتربية الجانب المتكامل الذى يتصل بالفكر والشعور والسلوك والإرادة أى الغرض تكوين شخصية سوية متكاملة أساسها الإسلام عقيدة وشريعة وعبادة لحمايته من العلمانية وتياراتها الهدامة .

(جريدة الاتحاد ١٦ مايو ١٩٨٦ – من حديث للدكتور يوسف القرضاوى مع أحمد السيوفى)



نحـو تقنين الشريعـة الإسـلامية

مؤتمر القانون الدولى المقارن بلاهاى اعتبر الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام منذ عام ١٩٣٢م .

يقول المستشار محمد الشربينى المستشار بوزارة العدل بدولة الإمارات حول تقنين الشريعة الإسلامية (صحف ٧ يناير ١٩٨٩) .

بمناسبة الوحدة السائدة فى الدول الإسلامية لتقنين الشريعة الإسلامية أقول والمسلمون فى كل مكان ندعو الله أن يكون للشريعة الإسلامية ، حظ أسعد فى مؤتمر وزراء العدل العرب ، وأن تجد هذه التشريعات طريقها للظهور ، وأن تقنن الشريعة الإسلامية شريعة الحق ، شريعة الله ، الذى قال تبارك وتعالى فى كتابه العزيز :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل اللهُ فأولئك هُمُ الكافرون ﴾ .

وقال : **﴿ ومن لم يحكم بما أنزل اللهُ فأولئك هُمُ الظالمون ﴾** .

وقال : **﴿ ومن لم يحكم بما أنزل اللهُ فأولئك هُمُ الفاسقون ﴾** .

وهى الآيات رقم ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ على التوالى من سورة المائدة .

والشريعة الإسلامية هى مجموعة الأوامر والأحكام الاعتقادية والعلمية التى يوجب الإسلام تطبيقها لتحقيق أهدافه .

ويكفى لبيان أهمية ومكانة الشريعة الإسلامية ، أنها شريعة الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء ، والذى لم يترك شاردة ولا واردة إلا ووضع حكمها فى كتابه العزيز الذى قال فيه : **﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شيء ﴾** [سورة الأنعام ، الآية : ٣٨] .

كما قال : **﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾** [سورة المائدة ، الآية : ٣] .

وقد عنيت الشريعة الإسلامية فضلاً عن القواعد التى تنظم المعتقدات والعبادات بتنظيم علاقات الناس بقواعد قانونية وخلقية ، وفى هذا الصدد لم تقتنع بالقواعد التى تنظم صلات الأفراد فيما بين بعضهم البعض ، ولكنها تجاوزت ذلك إلى وضع الأسس الكاملة التى تقوم عليها الدولة ، فالخلافة بيعة والأمر بين الناس شورى ، والناس سواسية ، وكل

المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، وحريات الناس مكفولة ورقابتهم على الحكام مشروعة .

والملكية الفردية ليست مطلقة تجنح إلى الكنز والاستعلاء والاستغلال ، ولا هى معدومة فيفقد الناس حوافز الجد والتنمية وإنما هى وسط بين هذا وذاك ، وسطية تجعل الملكية وظيفة اجتماعية فالمال مال الله ، ونحن مستخلفون فيه والناس عبيد الله ، ومن ثم كان للفقير فى مال الغنى حق معلوم لامن فيه ولا مهانة ، حق كامل يسع ضروريات الحياة لكل فرد محتاج بحيث توفر الدولة له السكن والطعام واللباس والدابة .

وفى المجال الوضعى يكفى لبيان مكانة الشريعة الإسلامية أن نشير إلى مؤتمر أسبوع الفقه الإسلامى الذى عقد بجامعة باريس سنة ١٩٥١ برئاسة نقيب المحامين ، والذى انتهى إلى النتائج الآتية :

١ – أن مبادئ الفقه الإسلامى لها قيمة حقوقية لا يمارى فيها .

٢ – أن اختلاف المذاهب الفقهية فى هذه المجموعة الحقيقية العظمى تنطوى على ثروة من المفاهيم والمسلمات . ومن الأصول الحقوقية هى مناط الإعجاب ، وبها يستطيع الفقه الإسلامى أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجياتها .

كما أن مؤتمر القانون الدولى المقارن الذى انعقد فى لاهاى بهولندا ١٩٣٢ قرر أن الشريعة الإسلامية حية صالحة للتطور ، وأن التشريع الإسلامى قائم بذاته ، وليس مأخوذاً عن غيره واعتبر الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام .

وفى مؤتمر المحامين الدولى الذى عقد بلاهاى ١٩٤٨ تبنى دراسة الشريعة الإسلامية دراسة مقارنة .

وقرر مؤتمر عمداء كليات الحقوق بالبلاد العربية فى مؤتمرى سنة ١٩٧٣ ببغداد وسنة ١٩٧٥ ببيروت ضرورة الرجوع عن القوانين المتباينة فى الدول العربية والعودة إلى الشريعة الإسلامية .

وإنه لمما يثير الإعجاب حقاً أنه كلما خاض الباحث فى أعماق الشريعة الإسلامية فى كل المجالات ظهر له أن أحدث النظريات التى ينتهى إليها الفقه الغربى الحديث فى كل فروع قوانينه ، وكان للوصول إليها دوى كبير بدعوى أنها ابتكار فى العلم أن لهذه النظريات أصلاً فى الفقه الإسلامى ، ومن أمثلة ذلك فى القانون المدنى (نظرية التعسف

فى استعمال الحق) فهى تطبيق للحديث الشريف : « لاضرر ولا ضرار »[1] .

ونظرية الإرادة المنفردة كمصدر من مصادر الالتزام وتقابل الجعالة فى الشريعة الإسلامية (ونظرية انتقاض العقد) وعقد الإذعان ، وأصله فى الشريعة الإسلامية (عقد الاستيبان) والبيع بالمزاد وأصله (بيع من يزيد) ، ونظرته الضرورية ، وهى تطبيق للقاعدة الأصولية (الضرورات تبيح المحظورات) .

وفى مجال الفقه البحرى نظرية (الخسائر المشتركة ، وفى ميدان المسئولية الجنائية وقصرها على الجانى) يقابلها قوله تعالى :

﴿ **ولا تزر وازرةٌ وزرَ أخرَى** ﴾ [سورة الإسراء ، الآية : ١٥] .

وفى مجال القانون الإدارى (نظرية الظروف المقارنة) كما أن معظم المبادئ القانونية فى القانون الدولى لها فضل فى الشريعة الإسلامية فقد نظمت علاقات الدول ببعضها فى حالتى السلم والحرب ، فقال تعالى :

﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله** ﴾ [سورة الحجرات ، الآية ٩] .

وحتى فى المجال الاقتصادى ، فإن للشريعة الإسلامية فيه نصيب ، فهى تجيز تأميم المرافق العامة والصناعات الرئيسية حيث قال رسول الله ﷺ : « الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار »[2] .

وقد وردت هذه الأشياء على سبيل المثال والقاعدة أنه كل ماكانت منفعته عامة لازمة للناس وجب على الدولة وعلى ولاة الأمور التدخل لتمكين عامة الناس من حقهم فى المشاركة فى المنفعة وقد ذهب الإمام ابن تيمية إلى أبعد من ذلك فيقول : إن المهن الضرورية كالطب والصناعات الفردية كالتجارة والحدادة يجوز إخبار أصحابها والمتخصصين بها على العمل لصالح الجماعة ويعطون أجر المثل ، كما أنه لاخلاف بين الفقهاء على استغلال صاحب المال للعامة كأن يحبس التاجر السلعة لديه حتى تنعدم فى السوق ، ثم يتحكم فى رفع السعر محرم شرعاً ، وعلى ولى الأمر التدخل لتحديد السعر ، وتحديد الربح ، كما أوجبت الشريعة الإسلامية أن يكون للعامل عدا أجره نصيب فى الربح .

وفى كمال الشريعة الإسلامية يقول الدكتور / سليمان مرقص ؛ أستاذ القانون المدنى

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) رواه أبو داود فى البيوع (٦٠) وأحمد (٥ / ٣٦٤) .

السابق بجامعة القاهرة : ففى الكتاب والسنة وهما أهم مصادر الشريعة الإسلامية الكثيرة من القواعد القانونية المتعلقة بالزواج والطلاق والنسب والميراث والوقف والوصية والتجارة والبيع ومختلف العقود والحدود الجنائية وغيرها من القواعد الجنائية ، وقد تناول فقهاء الإسلام هذه الأحكام بالشرح والتفصيل ، وفرعوا عليها الكثير من الحلول ، حتى غدت الشريعة الإسلامية نظاماً قانونياً كاملاً يعد أرقى الشرائع ، بل إن بعض نظمها يفضل مايقابله من نظم أحدث الشرائع العصرية .

وقد سبق وكتب المرحوم الدكتور / عبد السلام ذهنى فى الجريدة القضائية سنة ١٩٣٧ مقالاً تحت عنوان : « تجميع القوانين والشريعة الإسلامية » .

ورد فيه : لما كنت بمدينة ليون بفرنسا بقسم الدكتوراه من سنة ١٩١١ إلى سنة ١٩١٧ كان أستاذنا (لامبير) ، يرى الفقه الإسلامى فى المعاملات كنزاً لايفنى ومعيناً لاينضب ، وكان يشير على الطلبة المصريين بالرجوع إليه لوضع رسائلهم فى الدكتوراه عن مذهب الاعتساف (التعسف) فى استعمال الحق ، والخروج عما شرع له عند فقهاء الإسلام ، وما كادت الرسالة تطبع فى كتاب حتى نفدت فى ستة أشهر ، وكتبت عنها المجلات القانونية كثيراً ، وأشادت بعظمة التاريخ الإسلامى .

ومما كتبه الفقيه كوهلر الألمانى فى مقال له :

إن الألمان كانوا يتيهون عجباً على غيرهم لخلقهم نظرية الاعتساف فى استعمال الحق ، وإدخالها ضمن التشريع القانونى المدنى الألمانى الذى وضع سنة ١٩٨٧ وقد ظهر كتاب الدكتور محمد فتحى وأفاض فى شرح هذه النظرية نقلاً عن رجال الفقه الإسلامى فإنه يجدر بعلماء القانون الألمانى أن يتنازلوا عن المجد الذى نسبوه لأنفسهم ويعترفوا بالفضل لأهله ، وهم فقهاء الإسلام الذين عرفوا هذه النظرية ، وأفاضوا فى الكلام عنها قبل الألمان بعشرة قرون .

ويقول الأستاذ المرحوم عبد الرزاق السنهورى فى بحث له بمجلة القضاء العراقية بالعدد الأول من السنة الثانية : إن الكثير من فقهاء الغرب ومنهم كوهلر الألمانى ، وديلنتشبوا الإيطالى ، وويجمر الأمريكى أنصفوا الشريعة الإسلامية وشهدوا بما هى عليه من مرونة إن الشريعة الإسلامية لو تناولتها يد الصياغة فأحسنت صياغتها لصيغت منها نظريات ومبادئ لاتقل فى الرقى والشمول ومسايرة التطور عن أخطر النظريات الفقهية التى نتلقاها عن الفقه الغربى الحديث ، وأن كل مطلع على فقه الغرب يدرك أن من أحدث نظرياته فى

القرن العشرين نظرية التعسف فى استعمال الحق ، ونظرية الظروف الطارئة ، ونظرية التبعة ومسئولية عدم التمييز ، ولكل هذه النظريات أساس كبير من الشريعة الإسلامية لاتحتاج إلا إلى الصياغة والبناء .

وتتركز أهمية ضرورة تقنين الشريعة الإسلامية فى صعوبة الرجوع إلى أحكام الشريعة الإسلامية فى الكتب الفقهية نظراً لتعددها وقدمها وصعوبة لغتها وما انطوت عليه من إسهاب ومن أمثلة ذلك أن موطأ الإمام مالك - رضى الله عنه - يقع فى خمسة عشر مجلداً كبيراً ، وأن مبسوط السرخسى وهو حنفى المذهب يقع فى ثلاثين مجلداً كبيراً ، والأم للإمام الشافعى - رضى الله عنه - يقع فى أربعة مجلدات كبيرة ، وكذلك فإن مسند الإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - ينطوى على أجزاء كثيرة من الحجم الكبير .

وتقنين الشريعة ييسر للناس معرفة الحكم الشرعى بالاطلاع على القوانين التى ستشتمل على الأحكام العامة ، وعلى من يريد التعمق فى البحث اللجوء إلى المراجع الفقهية .

وقد ظلت الشريعة الإسلامية تحكم البلاد الإسلامية عامة والبلاد العربية خاصة قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان ولقد طوف الفقه الإسلامى فى الآفاق شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، ونزل السهول والوديان والجبال والصحارى ، ولاقى مختلف العادات والتقاليد فى جميع البيئات ، وعاصر الرخاء والشدة ، والسيادة والاستبداد ، والحضارة والتخلف ، وواجه الأحداث فى جميع هذه الأحوال ، وكانت له ثروة فقهية ضخمة لامثيل لها وفيها يجد كل امرئ أيسر الحلول لمشاكله وقد حكمت الشريعة فى أزهى العصور فما قصرت ولا قصرت عن الوفاء بأى مطلب ولا تخلفت بأهلها فى أى حين .

وكان من المفروض ألا تحكم البلاد الإسلامية بقوانين وضعية تجافى الشريعة الإسلامية لولا أن أجهز المستعمر على الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ ، واستقرت بريطانيا فى العراق والأردن وفلسطين ومصر ، واستقرت فرنسا فى المغرب العربى وسوريا كما استقرت إيطاليا فى ليبيا ، وبحلول الاستعمار فى البلاد العربية والإسلامية أخذت قوانينه الوضعية ونظمه تطغى على الشريعة الإسلامية تحت ستار المدنية ، وتقلص سلطان المحاكم الشرعية صاحبة الولاية العامة ، واقتصر اختصاصها على أقضية الأحوال الشخصية .

ومن نعمة الله على المسلمين أن موجة تطبيق الشريعة الإسلامية بتقنينها سادت العالم الإسلامى فى السنوات الأخيرة وندعو أن يتحقق ذلك ويسود كتاب الله الذى قال فيه :

﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ [سورة هود ، الآية : ١] .

وإذا قننت الدول الإسلامية والعربية الشريعة الإسلامية كما نرجو ذلك فلن تكون هذه هى المحاولة الأولى فى هذا المجال فقد سبقت ذلك محاولات عديدة تلت تلك المحاولة التى قام بها الخليفة عثمان بن عفان – رضى الله عنه – بقيامه بجمع القرآن الكريم ، وهذه المحاولات هى :

١ – محاولة الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز ، والذى يلقب بخامس الخلفاء الراشدين جمع السنن فى أوائل القرن الثانى الهجرى وقد كتب بذلك إلى ابن حزم أنه خاف ذهاب العلماء ، ولكن لم تتم هذه المحاولة لوفاة ابن حزم قبل إتمام السنن .

٢ – محاولة ابن المقفع لأبى جعفر المنصور الخليفة العباسى فى (رسالة الصحابة) وهذه المحاولة لم تتم أيضاً لخوف الفقهاء ، وأولى الأمور من ارتكاب خطأ فى اجتهادهم فى شريعة دينية كالشريعة الإسلامية .

٣ – محاولة الخليفة أبى جعفر المنصور عندما حج عام ١٤٨ هـ إقناع الإمام مالك – رضى الله عنه – أن يعول الناس على علمه ومذهبه فأبى الإمام مالك ذلك قائلاً : إن لكل قوم سلفاً وأئمة فإن رأى أمير المؤمنين أعز الله نصره إقرارهم على حالتهم فلم يفلح ، كما كرر الخليفة محاولاته مرة أخرى مع الإمام مالك طالباً منه (تجنب شدائد عبد الله بن عمر ورخص عبد الله بن عباس وشوارد ابن مسعود وأوسط أواسط الأمور ، وما اجتمع عليه الأئمة ، الصحابة – رضى الله عنهم – لتحميل الناس إن شاء الله علمك وكتبك وبعثها اليوم إليهم فى الأمصار وتعهد إليهم ألا يخالفوها ، فكتب مالك الموطأ ولكنه رفض أن يجبر الناس على مذهبه كما أصر على رفضه ذلك فى عهد الخليفة هارون الرشيد .

٤ – قيام السلطان محمد أورنك عما لكير أحد ملوك الهند بتقنين الشريعة الإسلامية بتكليف لجنة من مشاهير علماء الهند برئاسة الشيخ نظام ليؤلفوا كتاباً جامعاً لظاهر الروايات التى اتفق عليها وأفتى بها فحول العلماء وجمعوا فيه من النوادر ما تلقتها العلماء بالقبول وجمعوا ذلك فى كتاب يسمى (الفتاوى الهندية) وهو موضوع على أساس المذهب الحنفى السائد بهذه المنطقة ، وتقع فى ستة أجزاء أخرى تبحث فى العبادات والعقوبات والمعاملات ، ولكن هذا الجمع شبه الرسمى لم يكن إلزامياً كما تتصف بذلك القوانين .

٥ – قيام الدولة العثمانية بتجميع أحكام المعاملات المدنية حيث شكلت لجنة اسمها (جمعية المجلة) مؤلفة من سبعة علماء وبرئاسة أحمد جودت باشا ناظر ديوان

الأحكام العدلية وكانت غايتها تأليف كتاب فى المعاملات الفقهية يكون مضبوطاً سهل المأخذ بعيداً عن الاختلاف ، وحاملاً للأقوال سهل المطالعة على كل أحد .

وكان سبب تقنين الشريعة كما جاء بتقرير اللجنة (أن علم الفقه بحر لاساحل له واستنباط ورد للمسائل اللازمة منه لحل المشكلات يتوقف على طهارة علمية وملكية كلية ، وعلى الخصوص مذهب أبى حنيفة لأنه قام فيه مجتهدون كثيرون متفاوتون فى الطبيعة ووقع فيه خلافات كثيرة ومع ذلك فلم يحصل به تنقيح كما حصل فى فقه الشافعية ، بل لم تزل مسائله أشتاتاً متشعبة فتمييز القول الصحيح من بين تلك المسائل والأقوال المختلفة وتطبيق الحوادث عليها عسير جداً وعدا ذلك فإنه بتبديل الأعصار تتبدل المسائل التى يلزم بناؤها على العرف والعادة ، وقد باشرت اللجنة عملها فى سنة ١٢٨٥ هـ ، وانتهت منه سنة ١٢٩٣ هـ) .

وأصدرت مجلة الأحكام العدلية وتحوى ١٨٥١ مادة وتقسم إلى مقدمة وستة عشر كتاباً وهى مأخوذة من ظاهر الرواية التى هى فى المذهب الحنفى تختلف عن الفتاوى الهندية فى أنها لاتحتوى شيئاً من العبادات والعقوبات وإنما اقتصرت على المعاملات المدنية كما أنها لم تشتمل على أى تنظيم للأحوال الشخصية .

٦ - قيام محمد قدرى باشا ناظر العدل بمصر بتفويض من الحكومة المصرية بمحاولات عديدة لتقنين الشريعة الإسلامية وهى :

(أ) تدوينه لأحكام الشريعة فى الأحوال الشخصية على المذهب الحنفى فى ٦٤١ مادة وقد أصبح هذا التقنين هو المعمول عليه فى المحاكم الشرعية المصرية وغيرها من البلاد .

(ب) تدوينه لأحكام المعاملات المدنية على المذهب الحنفى فى قانون يسمى (مرشد الحيران فى معرفة أحوال الإنسان) وتقع فى ١٠٤٥ مادة .

(جـ) تدوينه لأحكام الأوقاف فى قانون يسمى (قانون العدل والإنصاف) ويحوى ٦٣٦ مادة .

٧ - قيام الجمهورية الليبية بإعداد تشريعات لتقنين الشريعة الإسلامية صدر بعضها بالفعل وأصبح قوانين سارية (قانون تنقية القانون المدنى من الأحكام المخالفة للشريعة الإسلامية ، وقانون (حد الخمر) . وقانون (حد السرقة) ، وقانون الزكاة وتحريم الربا النسيئة بين الأفراد والحدود وهى حد السرقة وحد الزنا وحد الخمر ، وحد الردة وحد القذف

وحد البغى وقانوناً متكاملاً للعقوبات تشمل الحدود والتعازير ، وقانون الأحداث المشردين ، وقانون المنشآت العقابية (السجون) ، وقانون تحريم المخدرات ، وقانون التعاملات المدنية ، وقانون الإجراءات الجنائية ، وقانون الإجراءات أمام المحاكم المدنية والتجارية ، وقانون الإثبات ، وقانون الأحوال الشخصية ، وقانون الإجراءات المتعلقة بها ، وقانون التجارة ، والقانون البحرى ، وقانون الشركات ، وقانون الوقف ، وقد صدر من هذه القوانين قانون المعاملات المدنية ومازال الباقى فى سبيله إلى الظهور .

٨ - وقد أوصى مؤتمر وزراء العدل العرب الذى عقد فى عام ١٩٨٠ بأن تقوم الدول العربية بتقنين الشريعة الإسلامية وكرر هذه التوصية فى جدة ١٩٨١ كما إنه يواصل طريقه للتقنين ، وتم إعداد مشروعات القوانين الجنائية وقانون الأحوال الشخصية .

٩ - كما قام مجمع البحوث الإسلامية بمصر بوضع عدة تقنينات للشريعة الإسلامية على كل مذهب من المذاهب الأربعة (مالك والشافعى وأبى حنيفة وأحمد بن حنبل - رضى الله عنهم -) .

١٠ - وأخيراً محاولة جمهورية مصر العربية تقنين الشريعة منذ عدة سنوات تلك المحاولات التى لم يظهر لها أثر حتى الآن اللهم إلا بتعديل الدستور بما بجعل الشريعة الإسلامية المصدر الأساسى للتشريع .

ولو قارنا بين دولة تطبق الشريعة الإسلامية وأخرى لا تطبقها لسارعنا إلى تقنينها ولو قطعت يد سارق علناً فى ميدان عام ﴿ **وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين** ﴾ .

[سورة النور ، الآية : ٢]

لأمنا الناس على أموالهم وبيوتهم ومتاجرهم ووسائل المواصلات وسائر الأماكن لأن أى سارق لن يجد الشجاعة لارتكاب جريمته إذا فكر فى أنه سوف تقطع يده وفاقاً بل إن الهلع والرعب سينتابه قبل أن تتحرك يده نحو مال غيره ، هذا فى المجال الجنائى أما فى مجال المعاملات المدنية والتجارية والدولية وقيم الشريعة الإسلامية فلن ينصلح حال المسلمين إلا برجوعهم إلى شريعة الله تبارك وتعالى .

(العلم المغربية - ٧ يناير ١٩٨٩)

★★★

الاستشراق والقرآن الكريم

عمل المستشرقون على جمع الشبهات والمفتريات فى كتاباتهم عن الإسلام والقرآن ، وحشدوا كل جهودهم من أجل طرح أطروحات واهية وافتراضات لاسند لها ، وجاءت دراساتهم مشوهة مشبوهة تدل على خبث مقاصدهم وسوء نيتهم ، ويعد كتاب نولدكه ١٨٦٠عن تاريخ القرآن الذى صدر فى ثلاث مجلدات المصدر الأساسى لجل المستشرقين فى الدراسات القرآنية .

ثم جاء آرثر جفرى (تاريخ القرآن) حيث جعله مدخلاً لكتاب المصاحف لابن أبى داود جمع فيه شواذ القراءات المروية فى سبعة وعشرين مصحفاً خاصة خمسة عشر منها لبعض كبار الصحابة .

وأتى بلاشير فكتب ما سماه (مدخل إلى القرآن الكريم) جمع فيه من شبهات بعض المستشرقين المتعصبين الذين أيدوا نزعات تشكيكه حيال القرآن الكريم وطرحوا نظريات واهية .

ولم يتوان عن إيراد بعض الشبهات والافتراءات ، وفى هذا المجال جرى مستشرقون كثيرون وحاول بعضهم إعادة ترتيب القرآن حسب النزول (رود ويل) وبلاشير على غير دراسات الإسلام للقرآن ، ومع التأكد من أن ترتيب الآيات والسور أمر توقيفى من عند الله تبارك وتعالى حسب الراجح من الأقوال ، ولا يجوز مناقضة توقيفية السور . (وهذا الاتجاه الذى جرى فيه محمد عزه دروزة فى كتابه التفسير الحديث) والميرزا باقر فى كتابه (القرآن حسب التبليغ الإلهى) .

ولم يتوقف أمر المستشرقين عند هذا العمل وحده ، ولكن اتسع النطاق بالعمل على ترجمة القرآن الكريم بدون خلفية ، فجاءت ترجماتهم جميعها قاصرة مشوهة لاستحالة ذلك ، ولعدم إلمامهم بمقومات اللغة العربية ومعانى الآيات ، فجاءت ترجماتهم مشوهة .

ذلك أن المستشرقين قاموا بوضع مقدمات نشرت قبل الترجمات تتضمن التشهير بالإسلام والنبى ﷺ .

ترجم القرآن لأول مرة إلى اللاتينية عام ١١٤٣ م ثم توالت ترجمات كثيرة إلى لغات متعددة (الألمانية – الفرنسية – الإنجليزية – الإيطالية – الروسية ، الهولندية – الأسبانية) .

وقد أثارت أبحاثهم كثيراً من الشبهات والافتراءات من ناحيتين :

الأولى : محاولة التشكيك فى مصداقية الوحى المنزل على رسولنا ﷺ .

ثانيـــاً : محاولة التشويش على عقول المسلمين وزلزلة أفئدتهم .

وقد سجل القرآن كثيراً من هذه المحاولات منها قصة (بحيرى) الراهب ودعوى تلقى الرسول ﷺ عنهم علم الكتاب .

وقد ذكر كازنوفا فى كتابه (محمد ونهاية العالم) أن القرآن قد أدخلت عليه بعد رسول الله تغيرات قام بها خلفاؤه ، وهى دعوى باطلة لم يجد المستشرقون دليلاً واحداً على كذبهم .

ومن ذلك قول كازنوفا فى كتابه (محمد ونهاية العالم) أن القرآن أدخلت عليه بعد الرسول تغيرات قام بها خلفاؤه – من ذلك فواتح السور أو الحروف المقطعة فقد قدموا عدداً من النظريات والتخرصات التى لا أصول لها وقد كشفت مغالطاتهم كيف يعز على المستشرقين وهم قليلوا البضاعة فى اللغة العربية أن يفهموا سر اختلاف القراءات وهو من أشد العلوم القرآنية تعقيداً .

أهـــداف الاستشراق

تعد كراهية الإسلام مظهراً لحقدهم الذى يضمرونه داخل نفوسهم باعتبار أن الإسلام يمثل أكبر عقبة فى سبيل حضارتهم المادية ومطامعهم فى السيطرة على العالم الإسلامى ومقدراته .

ومن هنا جاء التشكيك على صحة القرآن والسنة النبوية وإنكار النبوة ، وتزييف سيرة الرسول ﷺ وهدم قواعد الفقه الإسلامى بالفضائل والأخلاق الإسلامية .

وقد أثار المستشرقون كثيراً من الشبهات حول رواية الحديث ، بهدف : إلقاء الشبهات فى عقول المسلمين وتشكيكهم فى كثير من مسلماتهم وتقديم الإسلام إلى الغرب بصورة مشوهة مبتورة لا تشجع الأوربى على مجرد التفكير فى اعتناق هذا الدين .

والعمل على حجب التصدى عن التعرف إلى الإسلام وتحذيرهم منه .

★★★

يقر الغربيون بأن التحدى الحقيقى الذى يواجه حضارتهم يكمن فى الإسلام وحده من بين جميع الديانات والفلسفات حيث لايوجد غير الإسلام الذى يمثل محور الصراع والمواجهة لثقافتهم ونمط حياتهم .

ويرى حرو بنامه أن الإسلام يؤثر فى الوضع الأوروبى فى معظم الأمر بظهوره فى ثوب الخطر الدائم .

ولقد فقدت كثير من المذاهب والنحل قدرتها على التأثير فى عقول البشرية حيث تآكلت النصرانية من الداخل وتبين أن اليهودية ديانة مغلقة وكهنوت غامض .

أما الماركسية فأبرز معالمها أنها تصادم الفطرة وعجزها عن بناء الإنسان المثالى ، وبالرغم من تجمع قوى الاستشراق والتبشير والماسونية والصهيونية والشعوبية والباطنية فإنهم يمثلون فى نظر المثقف المسلم أصحاب مذاهب الإلحاد والانحلال والإباحة .

وهم بالرغم من كل هذا يعملون على إعادة نشر عقائد الأقوام القديمة بصورة جديدة .

الحملة على القرآن

فهم يدعون بأن القرآن اشتمل على أمور كثيرة متعارضة متناقضة غير معقولة ويرجع هذا إلى مصدره البشرى كما يقول جولد سيهر وهو عندهم مجرد تعاليم دينية كالتى عند اليهود والنصارى . (ومحاولة فصل السور المكية عن السور المدنية) لقرآنين متباينين وكانت خطتهم ترمى إلى تعدد المصاحف بتعدد القراءات واعتبارها تعددية فى نصوص آيات القرآن .

أو قولهم أن القرآن لم يدون فى عهد الرسول أو نزل فى منطقة صحراوية بما تعكس دعوته إلى نخيل وأعناب وأنهار جارية .

ومحاولة الادعاء أن هناك تناقضاً بين نصوص الكتب الدينية وأخطر ما قاله طه حسين : إن الدين لم ينزل من السماء وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها .

وقد روج أولياء المستشرقين مقولات كثيرة منها مقولة خلف الله وأمين الخولى أن للمسلم حق تأويل النصوص القرآنية على أساس أن القرآن يعبر عن المعانى ويصورها بالحكاية وأسلوب الحوار .

★ ★ ★

وأبرز عناصر الحملة مركزة على التشكيك فى شخصية الرسول الكريم كحامل رسالة السماء وقد عمل طه حسين ومن بعده عبد الرحمن الشرقاوى على تزييف تاريخ الصحابة والخلفاء على نحو الفتنة الكبرى وإعلاء دور عبد الله بن سبأ .

ودعوة عبد الرحمن الشرقاوى على مهاجمة الخليفة عثمان بن عفان وانتقاص الخلافة والصحابة الكرام - رضى الله عنهم .

وقد حاول طه حسين أن يصور معركة الجمل وكأنها معركة جاهلية بين بنى هاشم وبنى أمية ، وكتب فى هذا الاتجاه فى العربية جرجى زيدان ، ومن اليهود هنرى لامنس ، وكان افتراؤهم على السيدة عائشة - رضى الله عنها - افتراءً واسعاً .

★ ★ ★

يقول ليوبولد فابس (محمد أسد) : إن الغربى لا يستطيع أن يتقبل نظرية القرآن بأن الحياة وحدة كاملة لايمكن تجزئتها ، وأن مشاكل الجسد والعقل ومشاكل الجنس والاقتصاد ومشاكل الصلاح الفردى والعدالة الاجتماعية هى مشاكل مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع مساعى الإنسان وآماله فى حياة رضية بعد الموت .

★ ★ ★

إن مفهوم القرآن هو المفهوم الربانى لمختلف القيم والقضايا وقد عرض القرآن الكريم حسب تقدير بعض الباحثين لأكثر من أربعة آلاف قضية تمثل الموضوعات الأساسية الضرورية فى حياة الإنسان فيما يتصل بنفسه وحياته وعمله ومسئوليته الفردية وعلاقاته الاجتماعية والاقتصادية .

★ ★ ★

يتحدث القرآن عن الدفع إلى الحراك الاجتماعى والحراك بين الأمم والمذاهب والتيارات باعتباره سنة من سنن الله تبارك وتعالى فى الاجتماع البشرى ، وقانوناً من قوانين هذه الحياة .

﴿ **ولولا دفعُ الله الناسَ بعضَهم ببعضٍ لفسدت الأرض** ﴾ [سورة البقرة : ٢٥١] .

الاستشراق والخداع عن حقيقة الهدف تبين ذلك فى محاولة تصوير الفريد جيوم فى كتابه عن الإسلام معتدلاً وهى خدعة من (جيوم) للذين ظنوا هذا الظن به ، كل ماهنالك أن جيوم لم يكشف خبيئته وهو المسيحى المؤمن الذى وسّم كاهناً منذ ١٩٢٠ والذى اتجه فى دراسة الإسلام إلى الموقف المعتزلى وأورد بإسهاب انتقادات المعتزلة المنطقية والعقلية والتاريخية للبدايات الأولى لعملية جمع وتدوين أحاديث الرسول وسيرته ، ذلك أن تلويح الفريد جيوم بحكاية المنطق هذه تشكك فيه وتثير الريب حول كتابه

وخاصة اعتماده على (سيد أحمد خان) و (سيد أمير على) الأول هو الذى ألف جمال الدين الأفغانى كتابه (الرد على الدهريين) لمواجهة أخطائه والثانى الذى يلجأ إلى أسلوب بعض الباطنية فى فهم القرآن والإسلام حتى أنه يدعى بأن القرآن حكم بتحريم تعدد الزوجات وأن سر تخلف المسلمين هو أن الخلفاء لم يمكنوا المسلمين من حرية العقل والإرادة ودعواه بأنه لا يجد فارقاً جوهرياً بين الإسلام والمسيحية غير حالة بنوة المسيح ، ويشير سامى خشبة إلى أن كتاب الفريد جيوم لا يخلو من مشاكل وأفكار مثيرة للخلاف مع المسلم الموضوعى المؤمن الخالص ، وهى خلافات يمكن أن تؤدى إلى فتح أبواب مغلقة كثيرة .



الباب السابع
دراسات عامة
الزكاة : نظام ربانى

يقول الشيخ يوسف القرضاوى : إن الزكاة فريضة من فرائض الله ، وعبادة يتعبد المسلم بها لربه وركن من أركان هذا الدين ؛ لأنه لابد لكى يصح إسلام المسلم ويتم إيمان المؤمن أن تبذل هذه الزكاة طيبة بها نفسه طائعاً مختاراً ، وإن لم يفعل تؤخذ منه كرهاً ؛ لأنه هناك حارس للإيمان بالنسبة لهذه الفريضة .

وهناك حارس آخر هو حارس الرأى العام المسلم فالمفروض لدى المسلمين أن يكون هناك رأى عام للضمير الاجتماعى العام ، وهناك الحارس الآخر ، وهو السلطان :

« إن الله يزع بالسلطان مالايزع بالقرآن »(١) .

فالزكاة ضرورة دينية ، وهى ضرورة اجتماعية لكى تعرف الفوارق بين الطبقات ، والأغنياء من الفقراء الكادحين والفقر المدقع ، إذ لا يوجد فى الإسلام مثل هذا الذى يشكو من عضة الجوع ، والذى يشكو من زحمة العمل .

ولقد كان احتواء الفقر مبدأً أساسياً من مبادئ السياسة الاقتصادية فى الإسلام .

والزكاة تعمل على التقريب ، تؤخذ من الغنى وترد على الفقير ، تؤخذ من اليد القادرة لتعطى اليد المحتاجة ، تؤخذ من مال الله ، لتعطى عباد الله وعيال الله فالمال مال الله والخلق عيال الله ، ومن ماله يعطى عياله . وتكون الزكاة ضرورة لسد حاجات الفقراء والتقريب بينهم وبين الأغنياء ، وإقامة مجتمعه على أساس من الإخاء والحب .

ومن الناحية الاقتصادية : الزكاة تعطى الفقير قدرة على أن يلبى حاجاته ، وتمكنه من العمل ، لأن الأصل فى الزكاة لس مجرد إعطاء مسكن ، بل الأصل أن تحاول علاج المشكلة من أساسها ، وحلها من جذورها بحيث تغنى الفقير كما قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - « إذا أعطيتم فأغنوا » .

بمعنى أن الشخص ينتقل من مستهلك إلى منتج ، ومن آخذ إلى معط .

فالزكاة تنقل الإنسان من درجة من لايملك إلى درجة من يملك ، فالأصل أننا

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٥ / ١٠٩) .

نعطيه ليصبح قوة فعالة فى المجتمع بدلاً من أن يجلس متبطلاً ، ولا يفعل شيئاً .

والإسلام حينما فرض الزكاة لم يعتبرها مجرد إحسان أو تطوع ، وإنما اعتبرها حقاً معلوماً .

وهذا دليل على أنها من وظائف الدولة ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم** ﴾ [سورة التوبة ، الآية : ١٠٣]

وخذوا من أغنيائهم لتردوا على فقرائهم وجعل من مصارف الزكاة مصارف العاملين عليها ليجعل لها ميزانية مستقلة وموظفين مستقلين حتى لاتغمر فى الميزانية العامة التى تأكلها الناحية العسكرية والسياسية ويضيع حق الضعفاء.

والزكاة تحل مشاكل المجتمع غير المتوازن حيث يوجد بضعة آلاف يملكون ، وبضعة ملايين لايجدون ما ينفقون ، فلابد أن يعطى من يملك لمن لا يملك لكى لا يكون المال دولة بين الأغنياء .

★★★

وتقوم الزكاة فى المجال الاقتصادى بالدور الأساسى فى التعديل المستمر للتوزيع ، وتقليص أهرام الثروات لفائدة من لا يملكون ، تقوم الزكاة مع المعالم الاقتصادية وخاصة الفائض ، وتقييد الملكية الفردية ، وتحريم الربا وتحريم كنز المال بتشكيل أساس النظام الاقتصادى الإسلامى .

وكلما تبين عجز فى امتلاك الضروريات والحاجات الأساسية عند الأفراد أو الجماعات تتدخل الزكاة .

أداء حق الفقير والمسكين والمؤلفة قلوبهم .

إنقاذ الغارم أو المدين العاجز ، والمهدد بالسجن والعقاب .

وابن السبيل الذى فاجأه العوز .

ومن الناحية الخلقية يقوى الحس الاجتماعى والتضامن الروحى فى نفوس المزكين كما أنه بالنسبة للمنتفعين بها يضعف الشعور بالحنق وروح الانتقام .

وتعتبر الفرائض والميراث من أهم أركان التكافل فى الإسلام .

ويؤدى ذلك إلى ضبط علاقات الزواج والطلاق والإنجاب والتوارث وحقوق ومراجعات كل فرد من أفراد الأسرة من حيث أنها الخلية المركزية فى المجتمع .

والإرث وعلى هامشه يشكل عنصراً من العناصر المهمة فى نظام الاقتصاد الإسلامى ؛ لأنه يسهم فى إعادة توزيع الثروة ويشكل الميراث العنصر الأساسى فى التكامل .

★★★

ونظام التكافل فى الإسلام بجميع عناصره يساعد ولاشك فى ضمان الكفاف للجميع ، وهو الحد الأدنى من ضرورات المأكل والملبس والمسكن ، حيث أن الزكاة بما توفر من أموال للمستحقين من شأنها أنها تضمن هذا الكفاف وللمسلمين حقوقاً فوق الزكاة .

فقد جعل الميراث والزكاة وسيلة إلى إعادة التوزيع المتواصل للأموال إيجاباً بنظامى الزكاة والإرث ، وسبيلاً إلى تحريم الربا من شأنها أن تضعف التراكم غير العادى للأموال فى أيد قليلة ، وأن تمكن جماعة كبيرة من أفراد المجتمع من أن يصبحوا من المنتجين بدل أن يمكثوا فى حساب العالة غير المنتجة .

محاولات قديمة وحديثة لتقنين الشريعة الإسلامية

جاءت مدارس الفقه الإسلامى (الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة) فى الفترة التى ازدهر فيها الفقه الإسلامى وأصبح واضحاً بين عامى ٨٠ - ٢٤٠ هـ وهذه المدارس جمعت ووضحت أحكام الشريعة الإسلامية وطرق استنباطها والاستدلال بها ، كما أنها جعلت الأحكام الخاصة بالعبادة أكثر وضوحاً ومنفصلة عن الجزء الخاص بالمعاملات ، كما وضعت المواد الفقهية وجميع الأحكام التفصيلية المؤدية إلى دقة أداء شعائر العبادات ، كالصلاة والزكاة ، وصيام رمضان والحج ، وتناولت جميع الأحكام الخاصة بالعلاقات الأسرية كالزواج وآثاره ونهايته ، والعلاقات المالية والتجارية بين الأفراد . وكذلك مبادئ الحياة السياسية وعلاقات الدول والمجتمعات الإسلامية بالمجتمعات الأخرى .

ووصلت هذه الدراسة كاملة للأجيال التى تلت هذه الفترة ، وأصبح نموذج التشريعات الإسلامية كاملاً وتاماً فى كثير من الكتب التى يتناولها باسمها ، والتى وضحت الأحكام العملية للعبادة ، وتناولت حياة المسلمين أفراداً وجماعات .

★★★

قال الإمام الشافعي وهو أحد الأئمة البارزين فى كتابه (الرسالة) (لاتوجد واقعة إلا وقد أمر الله بحكم لها) .

وهذا يعنى أن أى شيء يحدث للإنسان فى حياته ، وفى أى ظرف ومكان لابد وأن يكون محكوماً بقانون ، ولكن لا يعنى أن الشريعة الإسلامية قد خصصت أحكاماً لكل عمل أو فعل بالذات ، ولكن بمعنى أنه يمكن الوصول إلى الحكم وفقاً للمبادئ العامة .

والاستنباط منها يقوم به العلماء ، وذلك بالاستعانة بمبادئ الفقه الإسلامى الذى يوضح طرق الاستدلال والاستنباط من النصوص التى جاءت فى القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة .

المصادر العقلية والنقلية :

إن مصادر الشريعة الإسلامية التى جاءت إلى الوجود فى القرن السابع الميلادى كانت دينية تهدف إلى تنظيم الشئون الدينية والدنيوية والعلاقات الإنسانية فى مختلف ميادين الحياة .

إن المشرع الوحيد القاضى هو الله جل شأنه حيث ورد فى القرآن الكريم :

﴿ **إن الحكم إلا لله** ﴾ [سورة يوسف ، الآية : ٤٠] .

وقد أمر الله رسوله بقوله :

﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله** ﴾ [سورة المائدة ، الآية : ٤٩] .

هذا الأمر لم يكن فى يوم من الأيام محل مجادلة أو اختلاف بين المسلمين .

وأدلة الأحكام كما اتفق عليها القرآن والأحاديث النبوية ، هى أدلة نقلية وردت إلينا بالوحى ، ويمكن أن يضاف العرف المتداول والتشريعات السابقة التى نقلت إلينا والحكم الأساسى لهذه الأدلة هو النقل الصحيح فربما تكون هناك بعض الكلمات الغامضة فى النقل أو النسخ وهذا يعنى أن النصوص هى العنصر الأساسى ، ولكن بعض الأدلة عقلية كالقياس ، وكذلك المصالح المرسلة والاستحسان والاستصحاب بما يعنى التمسك بالموجود حتى يكون هناك دليل للتغيير ، وكل هذه المصادر عقلية وهى مع المصادر النقلية أساس التدليل بشرط أن يكون الاستدلال عن طريق النقل أو العقل الذى يؤيدها .

والجدير بالذكر أن الشريعة الإسلامية استمرت تحكم البلاد الإسلامية عامة والبلاد العربية خاصة لمدة أربعة عشر قرناً واجهت فيها الثقافات والتشريعات والعادات المختلفة

والنماذج الاجتماعية والأحوال البيئية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والنفسية المتشعبة والمتنوعة .

هذا الوضع نتج عنه كثير هائل للتشريع جعل المجتمعات تجد لها مخرجاً من المشكلات العديدة .

ولكن تعرض العرب والبلاد الإسلامية فى العصر الحديث لموجة الاستعمار الغربى التى أدت إلى تسلل الأحكام الوضعية وانكماش تطبيق الشريعة الإسلامية .

ولكن بالنظر الصحيح نستطيع أن ندرك أن أصول الشريعة مازالت تحكم المجتمعات الإسلامية ، وإن لم يخل الأمر من الخروج عليها فى حالات قليلة محدودة و لعل ذلك هو الذى جعل المسلمين فى كل عصر يتجهون إلى محاولة تقنين الشريعة .

ولذلك فقد ظهر تيار دينى قوى فى العالم الإسلامى ينادى بإحلال الشريعة الإسلامية بدلاً من القوانين الوضعية .

ولم يكن هذا الاتجاه الجديد هو الأول فى جمع الشريعة الإسلامية فى قانون ولكن كانت هناك محاولات تميز العمل منذ عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان – رضى الله عنه – الذى جمع القرآن فى كتاب واحد وطريقة واحدة للقراءة والكتابة .

فى العصر الحديث

جرت محاولتان ، الأولى محاولة ملك الهند (محمد أورنيك عالمكير) لجمع الشريعة الإسلامية ، وذلك بتوجيه مجموعة كبيرة من العلماء الهنود المسلمين بقيادة الشيخ نظام وأصدرت هذه اللجنة كتاباً من ستة أجزاء متضمنة أحاديث الرسول ﷺ وفتاوى وآراء أئمة العلماء المسلمين مبنية على المدرسة الحنفية فى الفقه ، والتى كانت سائدة فى تلك المنطقة وقد تناولت قوانين العبادات والمعاملات والعقوبات ولكن هذه الدراسة لم تشمل كل الأحكام المفروضة .

(المحاولة الثانية) : قامت من جانب الإمبراطورية العثمانية لجمع كل العلماء برئاسة أحمد جودت باشا وزير العدل ، وكان هدف اللجنة إصدار كتاب متعلق بالقضاء يتناول فيه (الأسرة والقوانين المدنية) التى تكون سهلة فى نصها وخالية من أى اختلاف أو أحكام غير مقنعة وتشتمل على مختارات من أقوال الرسول ﷺ والسبب فى هذه المحاولة هو تقنين

جزء من الشريعة الإسلامية ولقد بدأت هذه اللجنة عملها عام ١٨٤٦م وانتهت منها فى ثمان سنوات ، وقد تم نشر الأحكام المتفق عليها فى مجلة الأحكام العدلية فى عام ١٨٥٢ وهى عبارة عن مقالات منقسمة بين المقدمة وستة عشر جزءا مبنية على إظهار وتفسير الفقه الحنفى ، ولكنه يختلف عن الفتاوى (الهندية) وعلى هذا الأساس لم تشتمل على القوانين الخاصة بالعبادات أو العقوبات .

وأجريت محاولات أخرى من قبل (محمد قدرى باشا) وزير العدل المصرى بتكليف من الحكومة المصرية لتقنين الشريعة الإسلامية فقد كتبت قوانين للأسرة وفقاً للمدرسة الحنفية فى الفقه من ٦٤١ مادة وهذه القوانين هى المنفذة الآن فى مصر مع التغيرات التى أدخلت عليها مراراً حتى عام ١٩٨٥م .

وفى بعض الدول الإسلامية الأخرى ، كما كتب قوانين خاصة فى الأحوال المدنية وفقاً للفقه الحنفى فى قانون أطلق عليه اسم (مرشد الحيران لمعرفة أحوال الإنسان) .

والذى يضم نحو ١٠٤٥ مادة بالإضافة إلى إصدار قانون يشمل أحكاماً خاصة يطلق عليه (قانون العدل والإنصاف) والذى يتضمن ٦٤٦ مادة .

وفى مصر جرت محاولات جادة لتقنين الشريعة فى محكمة النقض وفى مجلس الشعب ، وتمكنت تجربة مجلس الشعب التى اشترك فيها فقهاء كبار للشريعة والقانون من إنجاز قانونين كاملين أحدهما للمعاملات المدنية ، والآخر للعقوبات الإسلامية .

وشكلت فى ليبيا عام ١٩٧٢ لجنة عليا لتنقية القوانين مما يتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية بأمر من مجلس قيادة الثورة الليبى ، وقد قامت اللجنة بتنقية للقانون المدنى من الأحكام المخالفة للشريعة الإسلامية ، وأصدرت قانون معاقبة شارب الخمر ، وقانون معاقبة السارق وقانون الزكاة .

وقد شاركت فى وضع هذه القوانين الأمانة الفنية بهذه اللجنة وجرت فى الأردن محاولات لتقنين قانون الأحوال المدنية على أساس الشريعة الإسلامية .

★★★

وجرت فى باكستان محاولات لنشر بعض القوانين الإسلامية عام ١٩٧٩ م وقد تضمنت أحكام الزنى والسرقة والأسرة وإجراءات الجريمة القانونية ، والعقوبة بالجلد ، وطرق تتضمن القوانين الشرعية والدستورية وتكونت فى دول الإمارات المتحدة لجنة عليا

لتقنيين الشريعة الإسلامية يرأسها القاضى المصرى الشهير المستشار على على منصور وقد أعدت هذه اللجنة ٢٢ مشروع قانون لتغطية جزء كبير من الشريعة الإسلامية ، ولكنها لم تنشر بعد .

وكان مؤتمر وزراء العدل العرب المنعقد فى مراكش عام ١٩٨٠ م قد أوصى بضرورة تقنين الشريعة الإسلامية فى جميع البلدان العربية وهذه التوصيات أعيد ذكرها فى مؤتمر جدة عام ١٩٨١ م .

★★★

وكان المؤتمر الدولى قد عقد فى باريس سنة ١٩٥١ م .

وقرر أن المؤتمرين قد أبدوا الاهتمام بالمشاكل المثارة أثناء أسبوع القانون الإسلامى وما جرى فى شأنها من مناقشات أوضحت بجلاء ما للمبادئ القانونية الإسلامية من قيم لاتقبل الجدال كما أوضحت أن تعدد المذاهب والمدارس داخل هذا النظام القانونى الكبير إنما يدل على ثروة من النظريات القانونية والفن البديع ، وكل هذا يمكن هذا القانون من تلبية الحاجات العصرية بدون الرغبة فى أن يواصل الأسبوع أعماله كل سنة ، ويكلف المكتب بوضع لائحة بالموضوعات ونرجو تأليف لجنة لوضع قاموس للقانون الإسلامى من شأنه أن يسهل الإقبال على تأليف القانون الإسلامى ، وأن يكون موسوعة للمعارف القانونية الإسلامية مرتبة حسب الأساليب العصرية .

شبهات المستشرقين حول حقائق الشريعة الإسلامية

أولاً: قال جونى مؤلف (العصور المظلمة فى أفريقيا) وعادات وأعراف المسلمين وقد حاول إبطال ما يعتقده المسلمون من نزول الشريعة الإسلامية كاملة لا عن طريق ما يزعمه بعض المستشرقين من رد كل شيء إسلامى إلى سابق أعراف الأمم أو شرائعها أو من آثار الديانات الكتابية القديمة .

ويثبت علال الفاسى أن الشريعة الإسلامية أنزلت كاملة وهى بذلك صالحة لكل زمان ومكان .

واستشهد على ذلك بكتابات لوثروب ستوارد مؤلف (عالمية الإسلام الجديد) الذى قال إن نشر الإسلام هو الحدث الأكثر عجباً فى التاريخ الإنسانى .

وقد خرج من بلاد وشعب لم يكن يؤبه بهما وإذا به ينتشر فى مدة قرن واحد فى نصف الكرة الأرضية فاتحاً إمبراطوريات عظيمة محطماً ديانات كبيرة تأسست منذ زمن طويل صاهراً فى بوتقته نفوس الأجناس ومشيداً عالماً جديداً كله : عالم الإسلام .

ثانياً : إن القانون الفرنسى ومذهب الإمام مالك متفقان فى تسعين فى المائة من الأحكام وقد أثبت الباحثون عن طريق المقابلة العقلية بين الفقهين التوافق الغالب فيهما ، بل استمداد القانون الفرنسى من المذهب المالكى فى تسعة أعشاره ؛ لأن مذهب مالك هو الذى كان معمولاً به وقت الفتح العربى فى أسبانيا وفرنسا ، ولأنه المذهب الذى كان مدوناً معروفاً فى وقت لم يكن فى فرنسا غير أعراف مختلفة لا يسن من القانون الرومانى إلا القليل فى بعض تعاليمها ، ويؤكد أن مقاصد الشريعة فى العدل ونشر الإحسان وعمارة الأرض وما يهدف من السياسة الشرعية والمصالح المرسلة ، وكل ذلك كاف لسد حاجة الشرق عن طريق الجهاد .

ولا تقبل الشريعة اعتماد الطبيعة من حيث هى . إن القانون المسيحى لايقتصر على ما يستنبطه الفقهاء ، ويحكم به القضاة ، ولكنه يعتمد كثيراً من القرارات والمراسم الدينية التى يصدرها البابا لتصبح مادة من مواده ، وهذا ما يرفضه الإسلام بتاتاً .

ثالثاً : استقلال الشريعة الإسلامية .

الرد على موضوع أن الشريعة ليست إلا نسخة مكررة من الفقه الرومانى ، كما أن الحضارة الإسلامية ليست إلا نسخة من حضارة اليونان وقد رد علال الفاسى بكتابه (مدخل فى النظرية العامة) لدراسة الفقه ومقارنته بالفقه الأجنبى .

وقد أشار إلى ما قرره المؤتمر الدولى للقانون المقارن الذى عقد فى مدينة لاهاى عام ١٩٣٧ م حيث قرر فى وضوح أن الشريعة الإسلامية لم تتأثر بالقانون الرومانى ، بل هى شريعة مستقلة بذاتها .

كذلك وإن القانون الإسلامى مستقل عن ما يسميه المسيحيون بالقانون ، بل لامشابهة بينهما :

(**أولاً**) : لأن الشريعة الإسلامية منزلة بوحى من الله بينما القانون الكاثوليكى يطعم بالأخلاق المسيحية لبعض القوانين الرومانية .

(**ثانياً**) : ماتناوله القانون الكاثوليكى ضيق بالنسبة لميدان الفقه الإسلامى الذى

يشمل كل جوانب النشاط الإنسانى .

(**ثالثاً**) : أن القانون الكاثوليكى يعتمد كثيراً على ما يسميه بالقانون الطبيعى أى ما ابتكره فلاسفة اليونان وحذا حذوهم منه فقهاء الرومان وهو مصدر خارجى لاستكمال العدالة التى تنقص القوانين .

أما الشريعة الإسلامية فإن لها من مصادرها الداخلية ما لايحوجها إلى البحث عن مصادر خارجية كالطبيعة .

التشريع الجنائى الإسلامى

(١٥٠٠ صفحة - عبد القادر عودة)

يتناول بالبحث ميدان الشريعة الواسع :

١ - أحكامها فى المعاملات المدنية (بيع وشراء ورهن) .

٢ - أحكامها فى المواريث والوصية .

٣ - أحكامها فى الزواج والطلاق .

وهو جملة ما استنبطه علماؤنا الأفاضل من أحكام عامة فى أصول الفقه والبحث يضم العناصر الآتية :

- ولدت الشريعة مكتملة ، جامعة ، تضم تقنيناً لكل ملكات الإنسان ومتطلباته النفسية والجسدية والاجتماعية دون أن تقتل فى الإنسان طموحاته وتطلعاته المشروعة ودون أن تصادم طبيعته البشرية ، التى فُطر وجُبل عليها .

- وضع الحق تبارك وتعالى للناس نصوصاً تبقى صافية على مر الزمان ، أما البشر فهم يصنعون لأنفسهم قانوناً بعقليتهم المحدودة .

وقد يصادمون الطاقة البشرية ومصادرها ، ثم يعودون إلى نقض القوانين الوضعية وتعديلها .

- **مع ملاحظة** :

أولاً : خطأ القياس بين الشريعة والقانون بين قوانين وضعية من صنع البشر وبين الشريعة الإسلامية التى تكفل بوضعها خالق البشر .

ثانيــاً : انتفاء القياس ، لأن القياس يقتضى مساواة المقيس بالمقيس عليه .

فإذا انعدمت المساواة كان القياس باطلاً ويتضمن التشريع الإسلامى عدداً من الأحكام والنظريات :

١ – نظرية المساواة .

٢ – نظرية الحرية : حرية التفكير والقول .

٣ – الشورى .

٤ – نظرية تقييد سلطة الحاكم .

٥ – الطلاق ، تحريم الخمر ، تعدد الزوجات .

٦ – نظرية الإثبات والتعاقد وكتابة الديون .

٧ – نظرية تفتيت الملكية عن طريق الميراث .

٨ – أحكام الزكاة والتكافل الاجتماعى .

وقد كان اعتماد الغرب على الشريعة الإسلامية فى إنشاء القانون الرومانى الحديث دليلاً على الإحساس بعجز القانون الرومانى القديم .

ومع ذلك جاء فلم يتوقف الغرب عن الاقتباس من الشريعة الإسلامية دون الإشارة إلى ذلك إلا عند الاضطرار .

ومن ذلك جاء قانون حرمة المساكن الذى أخذه الغرب من الشريعة ، ولم يشر إليه إلا بعد أن تقدم أحد المسلمين بأطروحة اعتمد فيها على آيات سورة النور عندئذ اضطر المشرفون على الرسالة أن يعلنوا بأن قانونهم إنما كان مسبوقاً بالنص القرآنى ، وأنهم يعلنون تنازلهم عن دعوى السبق به .

معالم الفكر الإسلامى

الإسلام مصدر تفسير كامل للوجود والحياة بمنظور شمولى يستوعب الحديث عن الله الخالق المدبر ، وعن الإنسان المخلوق المطوق بمسْئولية الاستخلاف والتدبير واكتساب المعرفة.

– كما ربط بين الإنسان وبيئته الطبيعية بنية ممارسة فى تفاعلها وتناسقها البعد

الحقيقى للإسلام ، والذى كثيراً ما يغفل عنه هو أنه بالإضافة إلى كونه ديناً بعقيدته وعباداته وتشريعاته ، وقيمه الأخلاقية هو أيضاً مصدر لتفسير كامل للوجود والحياة .

★ ★ ★

الفكر الإسلامى انطلاقاً من الخطاب الإلهى :

١ - **هداية تعبدية** : حدد منطقة العقيدة ومعالمها ، ثم سن بعض التشريعات ، وما يتصل بها من مقاصد وقواعد وأخيراً وضع القيم ومعالم الأخلاق والفضائل .

٢ - **هداية تعبدية** : بمعنى أن القرآن تطرق إلى المبادئ العامة فى العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية .

٣ - **هداية علمية** .

أفاض القرآن فى هذا الموضوع حتى إنه سار فى اتجاهات ثلاث :

١ - الدعوة إلى طلب العلم (حيث جعله عبادة) .

٢ - التعرض لبعض الحقائق الغيبية أو الشهادية عن الإنسان فى أصله وطبيعته ، والهدف من إيجاده ومصيره .

٣ - استخلاف مختلف المناهج الكفيلة بالاستجلاء والاستطلاع حسب موضوع الدراسة .

والقصد من عرضه لهذه المناهج دعوة الإنسان إلى النظر والتدبر .

والقرآن الكريم فى كل ما ذكره من غيب وشهادة حتى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه كلام الله تبارك وتعالى أما حجيته ومصداقيته فتكون فى إعجازه البيانى والعلمى فى عالميته وثبوت مقولاته فى العصور والآفاق .وقد شخص أحد المفكرين المعاصرين المنظومة الإسلامية بمثلث قاعدته : الوعى العقائدى والتأسيسى المتضمن الإيمان والعبادة ، ومنطلق التوحيد .

وطرفه الأيمن الوعى النظرى والمعرفى وطرفه الأيسر الوعى الحركى ، ويشمل على العمل الصالح وبناء الحضارة .

وأخيراً رأس المثلث ويشكل المقصد الأعلى والنهائى الذى هو التوحيد .

معالم الفكر الإسلامى لدى المفكرين المسلمين:

انطلاقاً من الهدايات الثلاث التى أفسح بها القرآن للمسلمين جميع مجالات البحث والتنقيب وأضاء بها طريقهم حتى يجتنبوا التيه والضلال يتمعنون القرآن ، ويسيرون فى هديه .

علموا أنهم خلفاء الله فى الأرض مكلفون باستعمارها ، واستكشاف أسرارها ، واستثمار خيراتها وبناء دعائم الحضارة والعمران . وجدوا القرآن يحثهم على العقل والعلم والعدل ويوفر عليهم البحث فيما لاتستطيع أن تدركه عقولهم وجدوه يوجههم بالمنهج والأسلوب اللذين يمكناهم من اقتحام مختلف مجالات العلوم ومرافق الحياة .

وجدوه يحدد المفاهيم عن عناصر الوجود : عن الله ، عن الإنسان ، وعن المخلوقات النورية والنارية وعن الكون وجدوه يحدد العلاقات بين هذه العناصر كلها بين الله والإنسان كل فى موقعه بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والكون ، بل وجدوه يحدد هذه العلاقة بين الرجل والمرأة والزوج والزوجة والآباء والأبناء وللمسلمين وغيرهم .

فقرءوا القرآن وتدبروه واستمعوا إلى بيانات الرسول ﷺ فتكون التراث الإسلامى الضخم الذى كان نتيجة تفاعل مع الأصول على أساس أنها تشكل المعيار والمرجع ، وأن التراث يمثل الجهد البشرى وبرز الفكر الإسلامى فى أصول الدين وأصول الفقه وفى مختلف العلوم والمعارف الإنسانية والطبيعية والاجتماعية .

وحدة الفكر الإسلامى وشموليته

القرآن فى المنظومة الإسلامية هو المصدر الحافز والمرجع ، هو الموحد لبنائها الجامع لمكوناتها من عقيدة وشريعة وقيم ونظم ، وانطلاقاً من هذا المصدر الربانى ، نستطيع استخلاص منهجية التوجه الشمولى الإسلامى فيما يلى :

(**أولاً**) : التأكيد على وحدانية الله تبارك وتعالى .

رسم المنطلقات والتوجهات فى مجال المعرفة والوجود والقيم :

أولاً : توجيه العقل الإسلامىُ إلى مجاله الصحيح لتحصيل المعرفة والنهى عن الخوض فى المجالات التى لم يؤهل بفطرته لفهمها .

إن المجال الصحيح لعمل العقل وهو عالم التجربة الحسية أو الظواهر الكونية ومعنى هذا أن الإسلام لا يغفل الوحى بل يرى أن الوحى يهدى العقل ويعينه .

ثانياً : التمييز بين الظن واليقين .

وإذا كان العقل يغلب عليه الظن على اليقين ، فإن الوحى كل ماجاء فيه يقين .

ثالثاً : الموضوعية بالمعنى الإسلامى .

أى بالتجرد من الأهواء والأغراض واجتناب الزور والتحيز والافتراء وبهذا المعنى يكون مفهوم هذا المصطلح أوسع من المفهوم المتداول منذ القرنين والذى يقتصر على الجانب الموضوعى دون التدخل الثانى للباحث .

قال تعالى : ﴿ **فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٣٥] .

٤ – الحقيقة بكاملها .

إن الاجتراء من الحقيقة أو الانتقاص منها يزيفها كلها ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض** ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٨٥] .

٥ – التبين :

قبل إصدار حكم ما ، وذلك اجتناباً للزيغ والجور ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾ [سورة الحجرات ، الآية : ٦] .

٦ – الصدق :

وهو من الفضائل التى ألح عليها الإسلام وجعلها من شروط الاستقامة .

القرآن الكريم واللغة العربية

الإعجاز العلمى

فى القرآن الكريم ٤٦١ آية تتناول علوم الأرض كلها وقد ورد ذكر الأرض فى ٤٦١ آية قرآنية تتضمن إشارات علمية حول مختلف جوانبها بدءا من نشأتها وحتى مماتها ونهايتها ، وكان قد درس هذا الأمر فى المؤتمر العلمى الثانى لجيولوجية العالم العربى وحضره ستمائة عالم وخبير .

وكان قد اكتشف أخيراً حقائق علمية حول مآل الكون يتفق مع ماورد فى القرآن الكريم كما شهد العام الماضى مؤتمر الإعجاز العلمى للقرآن (فى مقر الحزب السنوى فى موسكو) .

أبرز هذه العلامات الكبرى هى :

أولاً : إشارات قرآنية لعلوم الأرض .

ثانياً : الحديد وبأسه الشديد .

وقد أشار القرآن الكريم فى آياته الكريمة إلى الكون والعديد من مكوناته مثل السماوات والأرض وما فيهما من صور الأحياء والجمادات فضلاً عن الظواهر الكونية المختلفة .

وقد جاءت هذه الإشارات فى مقام الاستدلال على القدرة الإلهية التى لا يحدها حد ما ، كما أشار إلى العلم والحكمة البالغين فى إبداع هذا الكون وذلك فى معرض محاجة الكافرين والمشركين والمتشككين والرد عليهم لإثبات حقيقة الألوهية لرب العالمين .

ومن هنا فإن الآيات الكونية التى تضمنت إشارات علمية فى القرآن لم تأت من قبيل الإخبار العلمى المباشر لسببين :

أولهما : (أن القرآن الكريم هو أساساً كتاب هداية أى كتاب (عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات) وهى القضايا التى لايمكن للإنسان أن يصل فيها إلى تصورات صحيحة بجهده منفرداً ولما يحتاج ذلك منها إلى الهداية الربانية .

ثانيهما : أن التعرف على الكون واستقراء سنن الله تبارك وتعالى فيه وتوظيف تلك المعارف والسنن فى عمارة الأرض أمور تركت لاجتهاد الإنسان عن طريق ملاحظاته المنظمة واستنتاجه للمنطقة على فقرات طويلة من طرفين ، ولكن إذا كانت المعرفة العلمية قد تركت لاجتهاد الإنسان فى تفسير وجود العديد من الإشارات العلمية فى القرآن الكريم .

يقول الدكتور النجار : إن القرآن هو كلام الله تبارك وتعالى الذى أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته ، ولما كان من المحال أن يتعارض واقع الخليقة مع حديث الخالق ، فكان لابد أن تحتوى الآيات القرآنية التى تتعرض للكون ومكوناته على الحقائق الثابتة التى لو استفاد بها المسلمون لكان لهم السبق فى اكتشافها .

★ ★ ★

علوم الأرض

يقول الدكتور زغلول النجار :

إن الآيات القرآنية التى تناولت الأرض تبلغ ٤٦١ آية على مجموعات تسع :

المجموعة الأولى : آيات تأمر الإنسان بالسير فى الأرض والنظر فى كيفية بدء الخلق ، وليس أساس المنهجية فى دراسة علوم الأرض .

المجموعة الثانية : آيات تشير إلى شكل الأرض وحركتها وأصلها وهى أمثلة تلك الآيات التى تصف كروية الأرض وتلك التى تشير إلى دورانها ، ومنها ما يشير إلى بدء حقيقة الكون بجرم واحد (مرحلة) ثم انفجار ذلك (مرحلة الفتق) .

المجموعة الثالثة : آيات تتحدث عن حقيقة تكريم الجبال وأوصافها ووظائفها وصفاً دقيقاً ، فقد بلغ الإعجاز العلمى للقرآن أن تكون كل هـذه الأمـور فى كلمتين فقط ﴿ **والجبال أوتاداً** ﴾ [سورة النبأ ، الآية : ٧] .

★★★

هذا التعبير الموجز يفسر نظرية تكوين الجبال ووظائفها ذلك أن العلم قد كشف مؤخراً أن الجبال تشبه الأوتاد التى تدق فى الأرض حيث تبين أن الشكل الخارجى للجبل (داخل جوف الأرض) الجزء الأكبر منه ويشير هذا الوصف أيضاً ﴿ **الجبال أوتاداً** ﴾ إلى الوظيفة الأساسية للجبال ، وهى تثبيت الغلاف الصخرى ، وهو ما يتأكد فى ٢٢ آية قرآنية أخرى ، والتى أشارت إلى عدد من الصفات والوظائف للجبال مثل دورانها مع الأرض أو دورها فى شق الأودية ، والفجاج أو فى سقوط الأمطار وجريان الأنهار والسيول .

المجموعة الرابعة : آيات تشير إلى نشأة كل من العنصرين المائى والهوائى حيث تصف الطبيعة الرجعية الوقائية لغلافها الغازى : ﴿ **والسماء ذات الرجع** ﴾ [الطارق ، الآية ١١].
أو تؤكد حقيقة ظلام الفضاء الكونى أو تناقص الضغط الجوى على الارتفاع على سطح الأرض .

المجموعة الخامسة : آيات تتحدث عن عدد من الظواهر البحرية المهمة مثل تمايز الحياة فى بعض البحار والمحيطات حيث لا تختلط اختلاطاً كاملاً ، وهو مايتجلى فى الفصل بين الكتل المائية فى حالة التقاء المياه العذبة والمالحة عند مصاب الأنهار .

المجموعة السادسة : آيات تشير إلى رقة الغلاف الصخرى للأرض وإلى تشويه سطحها وإلى تمهيده وإلى تناقص الأرض عند أطرافها .

المجموعة السابعة : آيات تؤكد إسكان ماء المطر فى الأرض بما يشير إلى تجمع المياه حول الأرض ، ومن داخل صخورها .

المجموعة الثامنة : آيات تؤكد أن عملية الخلق قد تمت على مراحل متعاقبة عبر فترات زمنية طويلة .

المجموعة التاسعة : آيات تصف نهاية الأرض والسموات ، وما فيها (الكون) بعملية معاكسة لعملية الخلق الأولى .

وهناك من الآيات التى تتضمن إشارات علمية أخرى وحقائق حول الكون بما فيه ومن فيه .

وغالبية هذه الحقائق لم تكن معروفة للإنسان قبل هذا .

★ ★ ★

القرآن الكريم والصحوة الإسلامية

لقد كانت اللغة العربية منذ وقت طويل داخلة فى دائرة المؤامرة التى يراد بها القضاء على بلاغة البيان لكلمة الله تبارك وتعالى والعمل على تحريفها وتدميرها ودفعها إلى مخططات التغريب الجديدة والتى بدأت قوى عربية فى أقطار أجنبية فى محاولة لما يسمى (الأدب المهجرى) وذلك بإذاعة أخطاء التشكيك فى القرآن ، والهجوم على لغة القرآن ، ومن هنا أدخلت اللغة العربية فى خطة المؤامرة التى خططت بمكر وإثارة من أجل توجيه الاتهامات نحو الفصحى لغة القرآن عن طريق لها طابع الفكر الباطنى والفلسفات الصوفية والتى تحمل طابع تدمير الأصالة .

وكان الخطر دائماً يأتى من التابعين لمترجمات يونان وإعلاء شأن أرسطو وأفلاطون من أولياء الفارابى وابن رشد فى مجال دعاوى عريضة وباطلة ترمى إلى القول بالامتزاج بين الثقافتين الإسلامية والوثنية وكيف يقبل الفكر الإسلامى أن يمزج بين التوحيد الإسلامى والوثنية اليونانية .

لقد جاء الإسلام معارضاً ومخالفاً للمفهوم الرومانى واليونانى والفرعونى والفارسى الذى كان مسيطراً على هذه الحضارات ، بل جاء ليهدم هذه المفاهيم التى روجت لها الفلسفة الوثنية اليونانية وغيرها حيث يصير كبار أعلامها على قاعدة الرق فى بناء الحضارة كأساس من أسس الحضارة ، وأن العبودية فى الساحة ، وأن السادة فى القمة ضرورة لايمكن التنازل عنها ، كذلك فإن المسلمين لم يقبلوا هذه الأفكار حين ترجمت الفلسفات فى العصر العباسى ، بل عارضوها ووقفوا أمامها بشدة وقوة وثقة ، وقد تبين أن القول الذى يردده الغربيون من أن الإسلام قبل الفلسفة اليونانية التى ترجمها الفارابى وابن رشد وهو قول باطل .

ولقد اعتبر علماء الفكر الإسلامى وقادته هؤلاء الفلاسفة أتباعاً لمدرسة المشائين اليونانيين فى اللغة العربية ، وماقبلوا منهم شيئاً ، لأن محاولتهم فى مزج الفكر الإسلامى التوحيدى الخالص الربانى القائم على التوحيد الخالص ، وأن هذه المترجمات تمت عن

طريق النساطرة الذين حاولوا الاستفادة منهم بتحريفها للدعوة إلى مذهبهم ونحلهم فهى تترجم ترجمة أمينة فضلاً عن أنه حدث تحريف فى نسبة الكتب من أرسطو إلى أفلاطون وبالعكس وكل له مذهبه ومفاهيمه المختلفة فأرسطو داعية المادية وأفلاطون داعية الروحية ، ولذلك فقد كانت خطيئة الكبرى أن حاول الفارابى الربط بين كتابين منسوب أحدهما إلى الآخر ولم تنفع محاولة تبريرها .

لقد أدخلت الفلسفة اليونانية حين ترجمت رياح السموم وعواصف الانحلال ، وأفسدت أجيالاً كثيرة ، وقد كان علماء المسلمين قد قاموا بواجبهم وكشفوا عن زيف هذه المحاولة ، وفى مقدمة هؤلاء الإمام الشافعى ، والإمام أحمد بن حنبل والإمامان الغزالى وابن تيمية .

ولقد حققت هذه الغزوة رصيداً خطيراً كان له أبعد الأثر فى كتابات العصور العباسية وتأثر الشعراء والكتاب بها .

ثم تجددت هذه الحملة على القرآن الكريم فى العصر الحديث فى محاولات خطيرة كان أسوأها فرض اللغتين الرومانية واليونانية على الدارسين فى كلية الآداب مما فتح كوة واسعة ، كذلك فقد جرى فى نفس الوقت إحياء الفكر الباطنى من البهائية إلى القاديانية كخدمة الهدف الكبير الذى كان الاستعمار والنفوذ الأجنبى والصهيونية عملوا على إحيائه فى نفس المسلمين وهو إلغاء فريضة الجهاد أو تفسيرها تفسيراً باطلاً لإغراق الشباب المسلم بالترف والتحلل عن طريق وسائل الترفيه وغيرها فى محاولة للقضاء على القوى المعنوية المتمثلة فى إيمان الشباب المسلم بالجهاد فى سبيل الله تبارك وتعالى وبذل النفوس رخيصة فى إعلاء كلمة الله وتحرير الأوطان والمرابطة فى الثغور .

★★★

لقد تركزت خيوط المؤامرة ضد القرآن فى هذه العلوم المسمومة « الفلسفة والمنطق وعلم الكلام » وفى الرد على الفرق والنحل ، وكان أبرز هذه العناصر :

(١) إخوان الصفا .

(٢) التصوف الفلسفى : ابن عربى والحلاج .

(٣) الجهمية والمعتزلة وغيلان الدمشقى .

والمعروف أن كارثة هذا التيار الخطير ، وقعت أيام المأمون ، وأخيه أبى إسحاق الذى

كان مقيداً له فى كل شيء فيما رأى من عجمية الفرس وإدلالهم بكسرويتهم وتقاليد مجوسيتهم وما اضطر إليه من قطع أواصرهم .

كان المسلمون يترجمون الكتب قبل المأمون : كتب الطبيعة والفلك والإحياء وغيرها من العلوم فى مجال الكون المادى .

وكانوا يرون أن الأسلوب الإلهى خير من عقائد الأمم الأخرى .

ذلك أن العقيدة الإسلامية مصدرها القرآن ، وكذلك كان موقف المسلمين بالنسبة للأخلاق والتشريع .

لقد تصدى لهذا الموقف أعلام كثيرون فى مقدمتهم الإمام الشافعى والإمام الغزالى وكشفوا جميعاً الحقيقة .

قال الإمام الشافعى: إن الله تبارك وتعالى أقام حجته بأن كتابه عربى فى كل آية . ثم أكد ذلك بأن نفى عنه – جل ثناؤه – كل لسان غير لسان العرب فى آيتين من كتاب الله تبارك وتعالى : ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾ [سورة النحل ، الآية : ١٠٣] . ﴿ **ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى** ﴾ [سورة فصلت ، الآية : ٤٤] .

أما الإمام الغزالى فقد حسم الموقف على حد أنه أغلق الباب فى وجه الفلسفة اليونانية ، وكل أهلها والعاملين عليها ، نعم ، أغلق الباب بكتابه (تهافت الفلاسفة) ، وقال الغزالى فى مقدمة كتابه (تهافت الفلاسفة) : إنه يرمى إلى هدم مذاهب الفلاسفة (إلا الفلسفة) .

ويرى المنصفون أن الغزالى صحح مسيرة الفلسفة فى الإسلام ، لقد ظل الفلاسفة غارقين فى مباحث لاترتبط بالوجدان الثقافى للأمة .

وهكذا جاء منهج التجريب الإسلامى الذى انطلقت منه الطاقات إلى عصر العلم الحديث ، لقد كان علماء المسلمين انطلاقاً من القرآن الكريم هم الذين أنشأوا المنهج العلمى التجريبى الذى كان أول حجر فى بناء الحضارة والعالم بشهادة درارو بربفولت وجوستاف لوبون فى القديم وسارتون وجارودى فى العصر الحديث .

ولما جاء المسلمون يدرسون العلوم الحديثة قادهم المستشرقون إلى فلسفة أرسطو القائمة على الجمود .

والحقيقة أنه لنا موقف إزاء مناهج الفلسفة التى تدرس فى المدارس والجامعات فإنها تنطلق من منطلقات الغرب ولا تستجيب لمفاهيم الإسلام ولا تورد هذه الحقائق ، وتصور دور المسلمين تابعاً للفكر الغربى ، والحقيقة أن الفلسفة بمفهومهم وهى عالم الغيب وما وراء المادة هى شىء لا يحتاج إليه المسلم لأن قرآنه الكريم وسنته الشريفة قد قدما له منهجاً مفصلاً لما يسمى بالميتافيزيقا ، إنهم يريدون إعادة المسلمين مرة أخرى إلى فلسفة أرسطو .

ولقد كشف حقيقة هذا الموقف الشيخ مصطفى عبد الرازق .

إن الفلسفة الإسلامية إنما تلتمس فى كتب المتكلمين والفقهاء ، وإن الإمام الشافعى واضع علم أصول الفقه ، وهو أول الفلاسفة فى الإسلام ، وإن مقامه فى العربية هو بمثابة مقام أرسطو فى اليونانية ، وبذلك نشأت مدرسة الأصالة فى مجال الفلسفة ، وامتدت من بعد واتسعت وقد تقررت هـذه الحقيقة ، وتحررت الفلسفة من التبعية الغربية وبرزت مدرسة الأصالة فى الفلسفة الإسلامية (عبد الرازق – أبو ريدة – النشار) إن المنطق الأرسطوطاليسى هو منهج الحضارة والفكر اليونانى ، وإن المنهج التجريبى الإسلامى هو الذى عرفته أوربا بعد قرون من مطلع حضارتها ، وإن اكتشاف وجود هذا المنهج لدى المسلمين يفسر (روح الحضارة الإسلامية) فالحضارة الإسلامية حضارة علمية تجريبية ، تتجه إلى تحقيق العمل الفلسفى فى ضوء نظرية حية ملموسة ، كذلك كشفت الأبحاث المتعددة عن اضطراب خطير فى المراجع التى اعتمد عليها هؤلاء الفلاسفة .

ونحن اليوم نقول بما قال به الشيخ مصطفى عبد الرازق ومدرسته أن ليس هناك فلسفة للمسلمين إلا علم أصول الفقه ، ومن ناحية أخرى فقد تبين أن المقاومة للفلسفة اليونانية ومنهج أرسطو بالذات ، قد بدأت منذ تمت الترجمة وإن المعارضة بدأت من اليوم الأول ، ذلك لأن الفكر الإسلامى كان قد تشكل قبل الترجمة على أساس قيمه القرآنية من التوحيد والأخلاق ، ومن الربط بين الوحى والعقل ، ولذلك فإنه كان من العسير أن تنصهر فيه الفلسفة اليونانية أو ينصهر فيها خاصة وهى فلسفة مجتمع وثنى قام على العبودية ، وإعلاء العقل ، وعبادة الجسد .

وقد فشلت محاولة المشائين المسلمين فى إدخال الفلسفة اليونانية فى إطار الإسلام وكانت وقفة الإمام الغزالى فى وجه الفلسفة الإلهية اليونانية وقفة صارمة ردت السهم إلى نحور أصحابه .

ولقد ظل الفكر الإسلامى ، وسيظل بإذن الله قادراً على الحفاظ على ذاتيته الخاصة

وطابعه الربانى وشخصيته المستقلة فى أشد الظروف وأقساها من محاولات احتوائه وصهره وحصاره .

ونحن نكشف اليوم هذه المؤامرة : كما كشف الإمام الغزالى عن أخطاء الفلسفة اليونانية فقد عارض الإمام الغزالى الفلسفة الإلهية فى قضاياها الثلاث الكبرى التى تقرها الفلسفة اليونانيـــة وتختلف عن المفهوم الإســـلامى ما يقولون به من قدم العـــالم ، وأن الله (جل وعلا) لايحيط علماً بالجزئيات ، وإنكارهم البعث ، والزعم بأن العالم قديم ، ومن قالوا إن النفس لاتموت ولا تتعدد ، ومن أنكروا الآخرة .

هذا وقد كشف الإمام الغزالى بالنسبة للفارابى وابن سينا خطيئة أخرى نعلنها حتى يستحى الذين يفخرون بالفارابى وابن سينا فقد عرفت روابطهم بالدعوات الباطنية الهدامة وإخوان الصفا والقرامطة ، وما يثبت من ذلك بنصوص ووثائق ومن أنهم كانوا على اتصال بأعداء الأمة ، وقد كشف الإمام ابن تيمية فى كتابه (الرد على المنطقيين) حقيقة واضحة هى أن الفكر الإسلامى لم يستخدم منهج أرسطو كما يدعون ، وإنما كان له منطقه الخاص به المستمد من القرآن والسنة .

وقد استخرج نصوص هذا المنطق وكشف عنه ، وقال : إن هذا المنطق كان فيه غنى للمسلمين عن العقلية الغربية فى الحكم على الأشياء ، وفى الاستبصار والتأمل الفلسفى ، ورد على المنطقيين الذين استحكمت عقولهم آثار الفكر اليونانى وطوابعه وعزلتها عن الاقتباس من فلسفة القرآن والحديث النبوى ومنطقهما : ومما قاله . « إن مما عند أئمة النظار من أهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية ، فقد جاء القرآن بما فيها من الحق وما هو أكمل وأبلغ منها على أحسن وجه منزه عن الأغاليط الموجودة عندهم » .

ويقول الدكتور النشار : كان ابن تيمية رائداً لكل الاتجاهات الحديثة فى نقد منطق أرسطو من فرنسيس بيكون إلى المنطقة الوضعية ، وقد عنى بنقد الفلاسفة أمثال : الفارابى وابن سينا وابن رشد . وكل من وافقهم فى التشيع لمنطق أرسطو .

وأشار إلى عبث محاولتهم وعقم تجربة التلفيق عندهما (الفارابى وابن سينا) بين الإسلام والأفلوطينية المحدثة ورأى أن هدف التلفيق هو هدم للإسلام من الداخل ، وهناك كتب كثيرة ألفها المسلمون فى هذا الصدد لمن يريد المراجع ومنها (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) بقلم محمد بن إبراهيم الوزير اليمنى الصنعانى المتوفى ٨٤٠ هـ ، وليعلم الذين يتشدقون بأن الفارابى وابن سينا هما المعلمان للفكر الإسلامى أن ذلك بعض

اختلاق ، وأنهما فى الأخير من دعاة الباطنية والعاملين لهدم الدولة الإسلامية .

هذا ما أردت أن أقصه على شبابنا الذى يقرأ حكاية إحياء الفلسفة الإسلامية .

انهيار الفلسفات المادية

قامت الفلسفة المادية على أن القلب والعاطفة لامكان لهما فى فلسفات الشيوعية والمادية ولا قيمة ، كان مفكرو الشيوعية وزعماؤها (كارل ماركس - إنجلز - لينين) يربطون الحياة الإنسانية بالعوامل الاقتصادية وحدها ، ويلغون فوارق الطبقات والملكية الشخصية والدين والأخلاق بجرة قلم واحدة .

والواقع أن هذه الفلسفة عارضت الفطرة والقيم الإنسانية أساساً ، ولم تلق أى نجاح فى أى فترة من تاريخها ، ولم تعش إلا سبعين عاماً بين رفض وفرض وإنكار وإلزام .

حتى إذا كان الجهاد الإسلامى فى أفغانستان حيث أذاق المجاهدون المسلمون الجنود السوفييت من عذاب الخوف والذعر والهزيمة مايعلمه العالم كله ويجلب لهم عوامل النصر والغلبة رغم قلة عددهم وضآلة وسائلهم وكثرة العدد والعدد لدى هؤلاء الجنود المسلحين بأحدث الأسلحة والعتاد الحربى .

وهنالك علم الشعب السوفيتى ماللدين من قوة وماللديان من شأن عظيم ومعجزة باهرة تصنع التاريخ وتنفذه فى تفسيره المادى الذى اعتمدته الفلسفة الماركسية وأسست عليه وجهة النظر الشيوعية وقد انهارت مع انهيار الجنود السوفييت فى أفغانستان وانسحابهم مهزومين مدحورين .

وكان هذا الواقع هو مبدأ اندحار الشيوعية وانهيار فلسفتها بحيث لم تقم لهم قائمة وأخيراً آذنت بالرحيل من المجتمعات البشرية ، وعادت أرض البخارى إلى الإسلام من جديد وبدأ التاريخ يعيد نفسه وتجدد إحياء الإيمان والعقيدة والدعوة والعلم فى ربوع هذه الأرض .

وجاءت الصحوة الإسلامية تكتسح موجاتها الجبال والبحار ، وتحطم حواجز القارات والمحيطات ، وتحولها إلى جنات موسعة للدعوة إلى الله وإعلاء كلمة الله .

تعريف العالمين أن الإسلام هو الملجأ الوحيد من كل غائلة ، ويصد كل الاستعمار فكرى وعقدى .

ماذا بعد سقوط المـاركسية ؟

هذا الفراغ لن يملأه اليهود والغرب ، ولكن يملؤه الإسلام .

يقول سعيد الأعظمى : ذلك مصير كل حركة أو دعوة تقوم على أساس متزعزع من الفكر الإنسانى الذى يفقد الأصالة ويعتمد على النعرات المحلية والهتافات الضالة .

لقد نجح الغرب المادى بالفلسفات المادية والنظريات العنصرية وظن أنه هو المنقذ الأول والوحيد للإنسان البائس المقهور على أن الرؤية الغربية نحو الكون والحياة والإنسان لاتعدو الأعراض المادية إلى شئ آخر من القيم والفضائل والعلاقات بين الإنسان وربه وبين الإنسان والإنسان .

لقد قطعت الفلسفات المادية الحياة الإنسانية من مفهومها الخلقى والروحى وهبطت إلى حضيض الشهوات والأعراض النفسية .

لقد قطعت صلة الإنسان عن منبع الإيمان وشغلته بالأهواء والمطالب الرخيصة التى تحرمه العواطف الإنسانية (الطهر والعفاف) إلى الاهتمام بالمحسوسات المادية وبالجوانب الظاهرة التى تجمع الثروات والمواد البراقة من الحياة الدنيا دون أن تكون لها أى قيمة للمثل الخلقية والفضائل الإنسانية .

لقد جرب المسلمون التجربة الغربية وفشلت (الفلسفات المادية والجدلية والاشتراكية ، والرأسمالية) وجرب المسلمون التجربة المـاركسية وسقطت ، وظهر زيف هذه الفلسفات والاتجاهات المادية .

وبينما الناس يخلعون لباس الماركسية إذا بزعماء هذا الفكر يتآمرون على الإسلام ويدبرون خططاً متبجحة وتفاقم الحقد الصليبى والصهيونى والبغض المجوسى فى محاولة تواجه مقدسات المسلمين ومراكز دينهم الحساسة ولكنهم لن يصلوا إلى شىء .

القرآن الكريم وعالمية اللغة العربية

يقول جوستاف لوبون : لقد سيطرت العربية على البلاد التى دخلها الإسلام ، وتغلبت على اللهجات التى كانت مستقلة فى ملك البلاد كالسريانية واليونانية ، إن استمرار حياة اللغة العربية دولياً لهو العنصر الجوهرى للإسلام بين الأمم فى المستقبل (ماسينون) .

كانت العربية لغة أدب وشعر منذ أعرق العصور الجاهلية ، ولكن سرعة انتشارها ترجع إلى الثمار المادية والروحية التى جنتها عن الإسلام وعن لغة القرآن ، حيث بدا انحلال مراكز الثقافة اليونانية والشرق الأدنى خلال القرن الثانى الهجرى .

يقول الدكتور / عبد العزيز بن عبد الله : بدأت شعوب عريقة فى الحضارة كالمصريين والهنود تتحلل من تراثها الخاص وعوائدها لتنصهر فى ثقافة القرآن ولغة القرآن ، وقد أوضح جوستاف لوبون أن العربية لغة القرآن أصبحت اللغة العالمية فى جميع الأماكن التى دخلها العرب حيث خلفت تماماً اللهجات التى كانت مستعملة فى تلك البلاد كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية . وقد انتشرت العربية فى أنحاء آسيا واستأصلت اللهجات القديمة وقد قضت حتى على اللاتينية لا سيما فى شبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانيا والأندلس) ، حيث يذكر الكاتب المسيحى (الفارو) من رجال القرن التاسع بجهل مواطنيه باللاتينية فقال : إن المسيحيين يتحلون بقراءة القصائد وروائع الخيال بالعربية ويدرسون بالبعثات علماء الكلام المسلمين .

وقال وزير من أهل الذوق من الأسبان بهرتهم بضاعة الأدب العربى ، واحتقروا البلاغة اليونانية ، وصاروا يكتبون بلغة العرب الفاتحين ، وإن العربية ظلت أداة الثقافة والفكر فى أسبانيا إلى عام ٥٧٠ ، ذلك أن العربية قد اكتسبت منذ فجر الإسلام معظم مقاومتها بفضل أثر الفكر القرآنى .

نعم : إن اللغة العربية التى بلغت مبلغاً كبيراً من المرونة والثروة فى العهد الجاهلى أدركت القرن الرابع الهجرى إبان تبلور الفكر القرآنى أوج كمالها ، وقد وصفها فكتور بيرار بأنها كنز يذخر بالمفاتن ، ويفيض بسحر الخيال ، وعجيب المجاز ، وروعة التصوير حتى أصبح نفوذ اللغة العربية بعيد المدى ، وحتى اضطر رجال الكنيسة إلى تعريب مجموعاتهم القانونية ليسهل قراءتها فى الكنائس الأسبانية وعرض نماذجها فى معارض الكتب المقدسة ليفهمها النـاس .

قال الرحال بوكارل :

وقد علمنا القرآن كيف نعيش مع مختلف اللهجات فى أجود مصطلحاتها ، فكان عدد المصطلحات فى القرآن مائة مصطلح ، وفى الحديث ثلاثمائة ، ونتج عن ذلك ذيوع العربية كلغة للفكر والحضارة .

وأصبحت العربية فى العصور الوسطى : لغة الفلسفة والطب والعلوم والفنون ولغة دولية

للحضارة وأخذت البلاد الأوروبية تدرس اللغة العربية وغيرها فى السويد ١٦٣٦ ، وفى روسيا ١٧٦٩ .

ودخلت إلى اللغات الأوروبية كثير من المصطلحات العربية فمن الأكسير والجبر واللوغريتم .

واستمد الأسبان حب ليفى بروفنسال ، ومعظم أسماء الرياضيين وأثرها فى العربية ومصطلحات العلوم الطبيعية ومصطلحات الرأى بل إن الإصلاح الخامس بالكنيسة تأثر إلى حد كبير بالطابع العربى وقد اعترف البابوات مثل رادون بذلك .

يقول ماسينون : إن العربية استطاعت بقيمها الجدلية والنفسية والصوفية أن تضفى سربال الفتوة على التفكير الغربى .

★★★

هزيمة الفرق الباطنية الضالة
القرامطة والخرمية والرافضة .. إلخ .

ترمى مؤامرة الفرق الباطنية الضالة ، والتى يجرى إذاعتها تحت اسم العدل والحرية إلى إدخال مفاهيم الفلسفة اليونانية وإحياء خطوات المشائين من ناحية وإحياء مفاهيم التصوف الفلسفى وإحياء خطوات دعاة وحدة الوجود .

ومن هنا يكون تأثير الفلسفة اليونانية والتصوف الفلسفى وعلم الكلام والاعتزال وأخطر هذه القوى : القرامطة والخرمية والرافضة .

وقد تبين لى بعد دراسة طويلة للفكر الاستشراقى ودوائر المعارف أن الهدف الأساسى هو تقديم تفسير كنسى مسيحى وباطنى للمفاهيم التى تشترك فيها الأديان والعقائد خاصة ما يتعلق بالأنبياء والأحداث والمعاملات وغيرها .

فقد حرص الاستشراق المسيحى على إحياء الفكر الباطنى القديم الذى اختلط باليهودية والمسيحية والذى أنشأ الفكر الماسونى؟ وذلك من أجل (احتواء) الإسلام وتفريغه من عناصر التميز الخاصة به وتدمير أقوى مقوماته ، وهو أنه دين ودولة .

وكذلك العمل على حجب الفجوة التى حدثت بين رسالة إبراهيم الحنيفية وبين رسالة الإسلام من تحول المسيحية واليهودية إلى دينين قوميين ، واختلافهما مع الترابط الزمنى والتواصل العقائدى بين الأديان كلها فى طريق واحد للوصول إلى الرسالة الخاتمة ، ويجرى ذلك فى تعتيم واضح ، ومغالطة مكشوفة حتى لايكتشف الغربيون هذه الفجوة ولا يصلون إلى المفهوم الصحيح الجامع من تتابع الرسالات وصولاً إلى الدين الخاتم (الإسلام) .

وكذلك تصوير الإسلام لأهله على أنه دين لاهوتى مقصور على العلاقة بين الله والإنسان وهذا ما تكشف عنه دوائر المعارف الغربية من إزالة التميز الإسلامى الخاص الذى يعطى الإسلام طابعه الأصيل الذى يجذب دائماً إليه كثيراً من المفكرين من مختلف الجنسيات والأديان .

ومن هذا ترمى الدعوة إلى تطوير الإسلام وإلى الحداثة وإلى العلمانية وإلى الحوار بين الحضارات والتقارب بين الأديان كلها وترمى هذه المؤامرة فى النهاية إلى تحويل المسلمين من ثقافة الإسلام إلى ثقافة الغرب فى محاولة لكسب علماء المسلمين إلى تأكيد دعاواهم بأن الفوارق بين الأديان هى فوارق أكاديمية أو هامشية ، وذلك لرد المثقفين الغربيين عند فكرة تميز الإسلام وخصوصيته التى يختلف بها عن هذه الأديان .

★★★

ولقد ترددت على ألسنة وكتابات بعض المثقفين العصريين كلمة « تطور الإسلام » أو تطوير الإسلام ، وهى عبارات غريبة يعرفها الباحثون من خلال قضايا مقارنات الأديان والحديث عن الأديان البشرية التى دعا القائمون عليها إلى تطويرها بعد أن أحسوا بالقفزات السريعة التى أحدثتها الحضارة المعاصرة والعلوم التجريبية بحيث أصبحت بعض معطيات هذه الأديان البشرية متخلفة عن العصر .

ولقد ظن بعض المثقفين أن الإسلام : يمكن أن تنطبق عليه هذه الظاهرة فأخذوا يكتبون كثيراً عن محاولات لوضع الإسلام فى دائرة الأديان البشرية وقياس أمور التطور عليه دون تقدير للفوارق العميقة بين الإسلام وبين الأديان البشرية أو المذاهب السياسية المعاصرة ، والأيديولوجيات الحديثة التى لم تلبث أن ظهر عجزها عن العطاء مما استدعى تطويرها بالإضافة والحذف .

أما الإسلام فإنه بوصفه « الدين الخاتم المنزل من السماء الموثق قرآنه والذى جاء للبشرية كلها » والقائم إلى يوم الدين فإنه يختلف عن هذه الأديان البشرية والمذاهب السياسية من حيث قدرته الدائمة المتجددة على العطاء فى مختلف العصور والبيئات .

أما الأيديولوجيات السياسية المعاصرة فإنها لم تستطع تحقيق هدف العطاء الدائم فاحتاجت إلى التطوير بالحذف والتعديل .

ولقد حاول كثير من كتاب التغريب تطبيق مفاهيم الدين البشرى على الإسلام من حيث الفصل بين العلم والدين ، وبين الدين والسياسة ، وبين الدين والمجتمع ، ورسمت خططاً كثيرة متعددة وعلى المدى البعيد لاحتواء الإسلام فى مفهوم المعطيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية مع مقولة مضللة بأن الإسلام دين عبادى يقوم على رسم العلاقة بين الله تبارك وتعالى والإنسان فحسب ، ومن هنا يصبح الإسلام فى نظر هؤلاء عبارة عن

صلاة وصيام وهذه أخطر المحاولات التى تريد أن تفرغ الإسلام من عطائه الجامع المتجدد كمنهج حياة ونظام مجتمع ، وهو العمل الأول الذى أقامه الرسول ﷺ ببناء مجتمع المدينة .

ولقد وقف العلماء المسلمون وقفة حاسمة أمام هذا الفكر الباطنى حيث يواجه الإسلام نوعين من الأعداء :

الأول : الكفار الذين يكفرون بالإسلام .

الثانى : الأعداء الذين يحاربون الإسلام حيث يعادونه ويتخفون تحت عباءته متمثلاً فى الفرق المختلفة التى تمثل فى الإسلام زوراً وبهتاناً ، مثل : السبئية وغُلاة الشيعة والخوارج والقدرية والجبرية .

ولما عجزت فرق التنصير عن تدمير الإسلام لجأوا إلى تكوين فرق أسسها بعض العملاء ، البابية والبهائية والقاديانية .

★★★

وواضح تماماً أن الإسلام لايقر التصور الفلسفى الوافد من الفكر اليونانى والفارسى والهندى جملة فهو تصور أريد به وضع صورة للألوهية والكون من علاقة الناس بربهم وبأحداث الحياة كالمطر والرعد والبرق وجعل لكل من هذه الأمور إلهاً (تعدد الآلهة) .

وهذا كله مرفوض تماماً ، فقد قدم الإسلام تصوراً كاملاً للميتافيزيقا من لدن حكيم عليم فى آى القرآن لا يحتاج معه المسلم إلى ذلك التصور الوهمى الذى قدمته خيالات الفلاسفة ، وقد حرص الإسلام أن يقدم تصحيحاً لكل كتابات اليونان ، والتى حملها فلاسفة مسلمون ، وقد ترجموا أصول النجوم والفلك وترجمت كتب اليونان ، والتى صحح المسلمون أغلاطها ، صححوا أغلاط جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وبطليموس .

وقال جوستاف لوبون : إذا كانت هناك أمة تقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم ، فالعرب هم تلك الأمة لارهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم فى إنقاذ الكنوز الثمينة .

وقال ليدى : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا فى الآداب عدة قرون .

وكان جوستاف لوبون قد أقر بفضل المسلمين فقال :

ينسب الناس إلى فرانسيس بيكون قاعدة التجربة والملاحظة والمنطق الاستقرائى (Nductire Lag,ir |) .

وهما الأصل فى أساس البحث العلمى الحديث فالواجب أن نعترف اليوم بأن هذه الطريقة كلها من مبتدعات العرب .

ويقول روبورت بريفولت فى كتابه : The Making Hamanitiy

وما من ناحية من نواحى تقدم أوروبا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير .

لم تكن العلوم الطبيعية التى يرجع فيها الفضل إلى العرب هى التى أعادت إلى أوروبا الحياة ، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت فى حياة أوروبا تأثيرات كثيرة ومنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى .

★★★

والإمام الغزالى فى بحثه عن (إلجام العوام فى علم الكلام) يطالب أهل الرأى من العلماء والمفكرين وولاة الأمور إبعاد ذوى المعارف المحدودة الساذجة عن ساحة الخوض فى علوم العقائد خوفاً على سلامة فطرتهم من أوليات القلق والحيرة ومزالق الشطط والضلال .

أما خواص الدارسين فقد دعاهم إلى الغوص فيها من أجل حماية عقيدة التوحيد وحراسة مبادئها أمام تيارات الجاحدين ومناظرات المبطلين من غير المسلمين .

ومن هنا فإن الدعوة إلى جعل الفلسفة عامة للجميع كما يدعو إليها المبطلون فى عصرنا هذا : هذه الدعوة مدمرة وخطيرة ، لأنها فى أقل ما تتركه الريبة والشك فى النفوس النقية البسيطة .

والواقع أن كل ماكتب فى كتب الفلسفة من الكلام والمنطق والتصوف الفلسفى يجافى الحقائق الأصيلة ، وهو الجبرية فهو تهويم خطير يراد به إحياء هذه المفاهيم .

وأخطر ماقدمته الفلسفة فى نظرية الشك التى لم تتمكن من الوصول بالإنسان إلى العقيدة الثابتة ، وقد أوضح القرآن الكريم أن الإنسان أُعطى علماً قليلاً .

★★★

ولقد تبين أنه من الضرورى لتأكيد اليقظة الإسلامية وحتى تحقق غايتها أن نعود إلى المفهوم الأصيل والنبع الأول لمفهوم العقيدة بعيداً عن كل ما يتصل بعلم الكلام أو المنطق أو التصوف الفلسفى أو الاعتزال حيث يجب تحرير النظرة الإسلامية من هذه الدخائل التى اختلطت بالفكر الإسلامى بعد ترجمة الفلسفة اليونانية والعودة إلى المنابع .

ولقد حاول بعض المفكرين التماس مفهوم المعتزلة ومضوا به شوطاً ، ولكن ذلك لم يحقق الوصول إلى الفهم الأصيل ، وكان هذا الاتجاه مرحلة على طريق المنابع ، وقد تبين أن المفهوم القرآنى – وحده – هو القادر على العطاء ، ولابد من التماسه وهو ما دعا إليه الإمام حسن البنا وكشف عن عجز الأساليب الأخرى فى تحقيق الهدف

يجب أن تكون لنا نظريتنا فى علوم المعرفة والتقدم والتحديث .

لقد كانت ترجمة الفلسفة اليونانية بمثابة رياح سوداء شديدة الظلمة مرت بالأمة الإسلامية ، فكانت مصدر كل الهزائم التى وقعت لها من بعد ، وكانت شديدة التأثير على كل صاحب قلم وفكر ، فكل التعقيدات التى نراها فى المعرى وابن تمام والمتنبى وغيرهم إنما ترجع إلى أثر الفلسفة اليونانية ، ولم يكن الاعتزال كما يدعى المستشرقون مصدر قوة بل كان مصدر ضعف ، فقد ترك المسلمون مفهومهم الجامع بين العقل والروح وأعلوا شأن العقل والكلام ، والمنطق والفلسفة فأصابهم نتيجة ذلك شر كثير لقد جاء الإسلام بمفهوم التكامل الجامع بين المادة والروح ، والعقل والقلب لأول مرة ، فى الإسلام بعد أن خضعت الحضارات والثقافات القديمة لأحدهما تجاهلت الآخر وجاءت الحضارة الغربية الآن لتعلى من شأن المادة والعقل والحس وتنكر الوحى والنبوة والغيب والألوهية .

★★★

جاء الإسلام جامعاً بين الدين ومنهج الحياة ونظام المجتمع حيث لاصراع فى الإسلام بين الدين والعلم ، ولا بين الدين والعقل ، فإن الإسلام هو الذى أعطى العلم منهجه التجريبى .

لقد قدم الإسلام أصفى وأعلى مفهوم للإنسان الذى كرمه الله تبارك وتعالى ، وأسجد له ملائكته ، وأعطاه حرية الإرادة والمسئولية الفردية ، بينما كان فى نظر الفكر الغربى حيوان ثم بحكم ولادته مجبور التناسخ ، لقد أقام الإسلام منهج مجتمعه وحضارته على أساس المسئولية الأخلاقية ، ففى مفهوم الفن والأدب أعلى من الأخلاقيات على الجماليات ، وفى مفهوم التقدم جمع بين المادى والمعنوى .

وهكذا أقام الإسلام [المنهج الجامع] .. القائم على قاعدة الثوابت والمتغيرات فأعطى حرية الحركة نحو التغيير والتطور فى دائرة المتغيرات بينما بقيت دائرة الثوابت قائمة ، كذلك ربط بين الفردية والجماعية فى كيان واحد بعد أن عاشت البشرية آلاف الأعوام فى صراع بين المذاهب الفردية والمذاهب الجماعية .

لقد جاء الإسلام ليكون دين البشرية الخاتم وقد أحدث ما أسماه المؤرخون وعلماء الآثار : (الانقطاع الحضارى) .

لقد قدم الإسلام ثلاث مناهج أساسية :

١ - المنهج التجريبى فى العلوم .

٢ - منهج المعرفة ذى الجناحين (العقل والروح) .

٣ - قانون قيام الحضارات والأمم وسقوطها الذى اكتشفه ابن خلدون .

★ ★ ★

لقد قامت الدعوة الإسلامية بتقديم منهج للفكر الإسلامى على أساس :

تحرير العقيدة وإقامة مفهوم التوحيد الخالص بعيداً عن الخلط مع :

١ - علم الكلام والاعتزال .

٢ - الفلسفة .

٣ - التصوف الفلسفى .

وقد التمس المسلمون هذا المفهوم من القرآن الكريم والسنة على النحو الذى عرفه المسلمون قبل ظهور الخلاف .

وهى بذلك تعمل على التحرر من كل مفاهيم الفرق والنحل والدعوات التى تأثرت بالفلسفة اليونانية من ناحية ، وبالفكر الغنوصى الفارسى من ناحية أخرى ، إيماناً بأن القرآن الكريم والسنة المطهرة قادرين على تقديم تصور كامل جامع مستمد منهما دون حاجة إلى منطق اليونان أو مذاهب الاعتزال أو التصوف الفلسفى .

ومن هنا فهى تضع كل هذا الفكر المنشور الآن فى معاهد التعليم الدينى موضع النافلة التى قد يدرسها الباحثون للإلمام بأدوار تاريخية مضت وانتهت ، إذ لا حاجة للمسلمين اليوم بالعودة إلى دراسة هذه الصراعات والاختلافات المذهبية والعقائدية التى

كانت مرتبطة بصراعات السياسة وظروف الحكم فى فترات مختلفة والتى يجب أن تنتهى بانتهائها .

ولقد كان واضحاً تماماً أمام الدعوة الإسلامية أن هذه المذاهب والنحل من قرامطة ومزدكية ومانوية لايمكن أن تدرس فى صلب العقيدة الإسلامية ، ولكنها تدرس فى إجمال بالغ فى مجال الدعوات الهدامة .

ولقد جرت المحاولات على تقديم العقيدة الإسلامية على هذا النحو المضطرب من أجل الحيلولة دون وصول المسلمين إلى جوهر التوحيد الخالص والثقة بأن المنهج الذى قدمه الإسلام هو وحده الذى قدم مفهوم العقيدة الصحيحة المحررة من كل عوامل الاضطراب ، وكان أبرز ما يرمى إليه تقديم (منهج حياة ونظام مجتمع) قادر على بناء الحياة على أدق وأعظم الصور والأساليب .

وكان فى مختلف العصور قادراً على أن لايعلى من شأن عنصرى (العقل والوجدان) وكيف عجزت المحاولتان اللتان حاولتاهما المعتزلة والصوفية من الانفراد بالتصور الإسلامى عن وصول غاياتهما . وأن تحق الحق بأن الإسلام جامع بين العقل والقلب ، والمادة والروح والثوابت والمتغيرات والدنيا والآخرة .

ومن هنا فإن محاولة بعض الباحثين المسلمين فى التوسع فى عرض هذه النحل والدعوات وتفصيلها ، إنما هو من الأعمال الخطيرة التى تحول دون الوصول إلى المنابع الأصيلة للإسلام ، وأنه متابعة للخطة المرسومة التى قام بها الاستشراق من أجل تصوير الإسلام على أنه عقلانية إسلامية أو إشراقية غنوصية : هذه الخطة التى جرى عليها بعض الكتاب الإسلاميين بحسن نية ظناً منهم أنها عمل أساسى ، بينما هى فى الحقيقة محاولة خطيرة تصيب المفهوم الأصيل فى النفوس المؤمنة بالاضطراب والشك .

وكذلك تقف الدعوة الإسلامية موقفاً مجرداً من تاريخ الإسلام فتنظر إليه فى ضوء مقررات الإسلام وتفرق بينه وبين منهج الإسلام نفسه بوصفه التجربة البشرية التى تقوم على الخطأ والصواب .

والتى تمثل فى مجموعها ذلك العمل الكبير الذى قدمه المسلمون إيماناً بالله تبارك وتعالى ، وبذلاً للنفس والمال فى سبيل أن تكون كلمة الله هى العليا ، حيث استطاع الإسلام أن يحقق قيام هذا المجتمع الممتد من حدود الصين إلى حدود نهر اللوار فى أقل من ثمانين عاماً ؛ ولذلك فإن محاولة تصوير هذا التاريخ على أنه لم يكن إلا صراعاً

بين الأمراء والحكام ، أو مؤامرات وخلافات هى محاولة باطلة ومضللة قام بها الاستشراق والغزو الفكرى من أجل الحيلولة دون تمكين التاريخ الإسلامى من إعطاء الثقة الحقيقية بعظمة الإنسان نفسه ، وفى هذا المجال يجرى بعض الكتاب للإعلاء من شأن العنصر العربى ، واتهام العناصر التركية والفارسية بأنها كانت مصدر تراجع الحضارة الإسلامية ، أو إيجاد صراع بين العرب والترك والفرس بإحياء خلافات قديمة قد انتهى أمرها ، ولم تعد هناك مدعاة لإحيائها من جديد .

سقوط الفكر الباطنى
وتحصين الفكر الإسلامى ضد الاختراق

كشف علماء الإسلام زيف منهج الفلسفة اليونانية وحذروا من مخاطره على مفهوم التوحيد الخالص ، وذلك منذ اليوم الأول لترجمة الفلسفات فى القرن الثانى للهجرة ، وكان أبرز العاملين فى هذا المجال : الشافعى وابن حنبل والغزالى وابن تيمية وابن القيم .

الشافعى : أعلن أن اللغة العربية لها منهج يختلف عن أرجانون اليونان .

ابن حنبل : هاجم فتنة خلق القرآن وقال : إنها منقولة من الفكر اليهودى .

الغـزالى : دحض تعاليم (الفارابى وابن سينا) وكذب مقولتهم فى ثلاثة مواضع .

ابن تيمية : نقض منطق أرسطو ، وأعلن منطق القرآن .

★★★

مدرسة عبد الرازق :

كان من أكبر أعمال المقاومة مدرسة الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى أسس اتجاهاً جديداً أصيلاً فى الفلسفة الإنسانية عامة ، وفى الفكر الإسلامى خاصة تقوم على ضرورة انطلاق الفلسفة من اعتقاد الأمة .

ولأن اعتقاد المسلمين هو الإسلام فلابد أن تكون جذور فلسفتهم فى عقيدتهم فالإسلام يحض أولاً على الإيمان بالله الواحد الأحد عز وجل ويمنع التفكير فى ذاته تعالى .

(تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا)(١) ؛ ولذلك فلا مجال

---

(١) انظر مجمع الزوائد (١ / ٨١) والسلسلة الصحيحة (١٧٨٨) .

الفلسفة الإغريقية فإنهم لايمثلون الفكر المستقل فى الإسلام ، وإنما يمثله واضعوا علم الأصول الفقهى ، وأساتذة علم الكلام ممن فلسفوا وسائل النظر الفكرى فى الإلهيات وما وراء الطبيعة فلسفة تؤيد الوجهة القرآنية فى مصدرها الصحيح .

ويقر الشيخ مصطفى عبد الرازق : أن التوحيد والتصوف بابان من أبواب الحياة العقلية فى الإسلام وأنهما على اتصال بالبحث الفلسفى الخالص وأن علم أصول الفقه هو ضرب من مناهج البحث فى التشريع الإسلامى نبت فى ظل الإسلام وكنفه وإن تأثر بعد ذلك بمنطق أرسطو خاصة والفسيولوجية بصفة عامة .

وقال : إن جمهرة المستشرقين فى القرن ١٩ قد استولت عليهم نزعات التعصب الدينى فوقفوا من الفلسفة الإسلامية وأهلها موقف عداء وكان عليه أن يعرض آراءهم فى أمانة العالم ونزاهته ثم يعقب عليها بتفنيد أقوالهم وبيان وجه الخطأ فى تعسف أحكامها ففعل فى اتزان ووضوح ، وتحدث عن تجربة الجنس الذى اعترف أرنست رينان بأنه أول من زخرف نظرية الأجناس ثوباً علمياً .

وزعم أن الجنس الأبيض ، ومنه انحدر العرب ، ولم يخلق بطبيعته الأصيل بل إن العرب فى زعمه لم يستوعبوا الفكر الأصيل الذى نقلوه من اليونان إلى لغتهم فأبلغوه بشروحهم وشوه بتعليقاتهم .

وأكد الشيخ مصطفى عبد الرازق : استكشاف النواة الأولى للنصر العقلى الإسلامى فقرر أن القرآن الكريم قد ذكر الحكمة التى عرفها العرب وكانت شرفاً لأهلها وأثنى عليها أثناء شرح توجيه النظر العقلى عند المسلمين فى عهدهم الأول وكان الاجتهاد بالرأى فى الأحكام الشرعية بداية النظر العقلى عند المسلمين وقد نما وترعرع فى رعاية القرآن الكريم ونشأت فيه المذاهب الفقهية .



وفى مواجهة تصحيح الفكر الإسلامى ذهب العلمانيون والملاحدة إلى إعادة إحياء القرامطة – وابن عربى والحلاج وإخوان الصفا ، وكان أكبر هذه الفرقة اهتماماً : المعتزلة بوصفها أنها مذهب عقلى حيث حظى بأكبر قدر من الاهتمام .

أولاً : المعتزلة وما يتعلق بفتنة (خلق القرآن) وغيرها .

ثانياً : الباطنية والفرق الغالية .

ثالثاً : التصوف الفلسفى ومتصوفة الباطنية ودعاة وحدة الوجود والحلول والاتحاد ، ومن بين مفاهيمهم الغنوص .

وما أدخل إلى مفاهيم الإسماعيلية عن الولاية وعن آل البيت وخلافتهم ، ومحاولة رفعها إلى درجة الأنبياء والملائكة وهو ما يسمى بالغنوص الإسماعيلى ، وانطلاقاً من هذا الغنوص الإسماعيلى كان نفى البابية والبهائية عقيدة ختم النبوة والرسالة محمد ﷺ عندما زعموا استمرارية تجلى الحقيقة النبوية فى صورة الباب ثم البهاء مصدر هذا الفكر نظرية الصدور فى الأفلاطونية المحدثة وهنا يتكشف دور الحلاج ودور ابن عربى .

قال اسين بلاسيوس : إن عصر ابن عربى كان قد تمثل علوم اليونان جميعاً وذلك بفضل الدراسات الفلسفية اللاهوتية التى قام بها ابن سينا وأعقبت مذاهب الصوفية ، وهى ذات مذاهب لها طابع نظرى غالب وفى أساسها يتجه نحو القول بوحدة الوجود .

وقد عرف ابن عربى بمذهبه الغامض المتناقض فى وحدة الوجود أما شهاب الدين السهروردى فقد كان مذهباً غامضاً متناقضاً فى وحدة الوجود .

أما الحلاج فقد فلسف نظرية الإله الإنسانى التى هى المدخل لفلسفة وحدة الوجود فى مدرسة ابن عربى ، وقد أكد ماسنيون فى كتابه « عذاب الحلاج » أن الحلاج راح ضحية مؤامرة كبرى فى الدولة العباسية فى حضور ومواجهة كل الفرق الإسلامية فى عصره ، وأن الحلاج فيما يرى (ماسنيون) كان يسعى إلى جمع الكلمة الإسلامية المتفرقة فى عصره ؛ ولهذا كان الحلاج حين صلب ضحية السياسة أكثر من أنه ضحية الاصطدام بالشعور الدينى لشريعة الجماهير الإسلامية .

وقد كان السهروردى هو الذى حمل لواء الغنوص الباطنى فى مواجهة الفلسفة اليونانية ، وكان أخطر ما قام به السهروردى هو تأويله للقرآن كى يشهد للذوق الباطنى حيث يشهد للذوق الباطنى الصوفى الغنوصى ضد البرهان العقلى وهكذا كانت المدرسة الفارسية الغنوصية المتآمرة على الإسلام المناهضة كمفاهيم حضارية للإعلام ، وقد أولى (هنرى كوبان) بالسهروردى ، وكذلك اهتم به ماسنيون وجولد سيهر حيث جمعوا هذه المقولات المضللة وتقديمها من جديد للمسلمين فى العصر الحديث .

وقد حرص المستشرقون وأتباعهم على الحرص على ما دخل إلى مفاهيم الإسماعيلية عن الولاية ، وعن آل البيت وخلافاتهم ، ومحاولة رفعها عن درجة الأنبياء والملائكة ، وهو ما يسمى (الغنوص الإسماعيلى) .

المؤامرة على الوحى

ابن سينا ، معبد الجهنى ، غيلان الدمشقى ، الجعد بن درهم

لاشك أن الفتنة السياسية المختلقة بين الإمام على كرم الله وجهه ومعاوية والصراع الذى شابها على الخلافة كانا بمثابة السيف الأول الذى جعل أفكار العقل تخرج من عقالها ، ولم يكن للجيل القرآنى العظيم الذى عاش هذه الفتنة وهذا الصراع نصيب فى إنتاج هذه الأفكار بل كان هناك أشخاص معينون لهذه المهمة أى لإثارة الفتنة وجرها على أصحابها إلى حلبة الصراع الهادئ أولاً ، ثم الصراع الدامى أخيراً من أجل إفساد الإسلام والإضرار به .

كان هناك عبد الله بن سبأ اليهودى الذى أدخل اليهوديات الإسرائيليات إلى الإسلام وبث سمومها فيه وفى رجاله .

فكان معبد بن عبد الله الجهنى البصرى : الذى يقول بالقدر ، علمه إياه رجل نصرانى من أهل العراق يدس سوس وثقب فى صدره سمومه ، فكان معبد أول من قال بالقدر فى الملة المحمدية ، وقدم مدينة الرسول ﷺ فأفسد فيها أناساً فاشتغل أهل زمانه بتحذير الناس منه .

وروى أن الحسن – رضى الله عنه – كان يقول : (إياكم ومعبداً فإنه ضال ومضلل) .

وروى أن مسلم بن يسار كان يتحسس إلى سارية المسجد ويقول إن معبداً يقول بقول النصارى .

ومازال كذلك حتى أخذه عبد الملك بن مروان عام ٨٠ فقتله وصلبه فى دمشق .

وانتقلت آراء معبد إلى غيلان بن مسلم الدمشقى فخاض فى القدر ، وكانت نهاية أمره أن أخذه هشام بن عبد الملك بن مروان فقطع يديه ورجليه (مقالات الإسلاميين) .

وتمت هذه الأفكار العقلية فى البيئة الإسلامية حتى استقرت فى الإطار المعتزلى الذى كان أبو الهذيل العلاف ٨٤٩ هـ ، شيخ المعتزلة أستاذ الخليفة العباسى المأمون الذى يدرسه ، ويعلم الأديان والأقوال المختلفة فى الملل والنحل والعقائد المخالفة للإسلام .

والمأمون هو صاحب محنة خلق القرآن شجعه على إعلانها المحدث المعتزلى

(أحمد بن أبى دؤاد) وفكرة خلق القرآن فكرة يهودية أصلاً ونسباً ، أخذها الجعد بن درهم عن إبان ين سمعان التميمى الهندى الذى ادعى النبوة ، فقتله خالد العشرى ، وأخذها إبان عن طالوت (شارون بالعبرانية) ابن أعصم اليهودى ونادى بالفكرة أمام الخليفة العباسى هارون الرشيد .

المعتزلى بشر المريسى ، وهو من أصل يهودى أيضاً ، فقد كان أبوه يهودياً يحترف الصباغة فى الكوفة .

ويروى ابن الأثير فى تاريخه أن أول من نشر فكرة (خلق القرآن) بين المسلمين هو لبيد بن الأعصم الذى كان يقول بخلق التوراة ، ثم أخذ الفكرة عنه ابن أخيه طالوت بن الأعصم .

وقال ابن قتيبة فى « عيون الأخبار » : إن أول من قال بالفكرة المغيرة عن سعد العجلى ، وهو من أتباع عبد الله بن سبأ اليهودى ، وحين أعلن (المأمون) عن فكرة خلق القرآن وتحزب لها وربط بينها وبين القول بالتوحيد حتى قال : لاتوحيد لمن لم يقل بأن القرآن مخلوق [انظر رسالة المأمون فى خلق القرآن من كتاب عصر المأمون جـ٢ ، تأليف دكتور أحمد فريد رفاعى ١٩٢٦] .

* وخلاصة هذه السطور أن المؤامرة على نقض الوحى الإلهى إلى خاتم المرسلين والأنبياء محمد ﷺ بدأت أول ما بدأت على أيدى اليهود ، وأن هؤلاء اليهود لم يجدوا من وسيلة يحاولون بها هدم الملة الإسلامية سوى ما توحيه إليهم به شياطين عقولهم المتهافتة من أفكار واهية ومزاعم باطلة .

على أن علاقة اليهود بالعقل الإغريقى ليست مجهولة كما أرادوا وكرروا وأعادوا للاعتقاد الإسلامى وهو فى أوجه وذروة توقحه اعتماداً على القرآن والسنة نفس مافعلت اليهودية حين اصطدمت تعاليمها التوراتية المزيفة مع العقل الإغريقى الذى بدا للأحبار اليهود أكثر حكمة ورزانة وتوافقاً .

ولكى تدعم اليهودية حكمتها التوراتية حاولت - خاصة عل يد (أرسنو بولوس) التوفيق بين ما هو لليهود وما للإغريق وحسب ما يذكر الدكتور محمد البهى فى كتابه (الجانب الإلهى فى التفكير الإسلامى) فإن العزة الوطنية اليهودية فى توفيقه غلبت عليه فكان نمطه فى التوفيق ، أما التزييف بالنسبة إلى الإغريق أو رد فلسفة الإغريق إلى التعاليم الموسوية بمحاولة استنباط آراء الفلاسفة ، حتى آراء الشعراء اليونانيين من التوراة ،

وهكذا بناء على نمطه فى التوفيق يجب أن يكون فيثاغورس وسقراط وأفلاطون قد أخذوا جميعاً من التعاليم الموسوية .

ثم يضيف قائلاً : وربما كان استويرنوس هو أول من وفق بين سماوى وبين الفلسفة الإغريقية ، وربما كان أيضاً أول من زيف فى نسبة الكتب الفلسفية ، وربما كان أخيراً أول من رد التعاليم الفلسفية إلى مصدر دينى سماوى .

فالمؤامرة إذن كانت (مؤامرة يهودية – هلينية) مزدوجة أو مشتركة وربما كان المأمون واعياً بها وبخلفيتها وأبعادها ، وربما لم يحط بها علماً ، فاليد اليهودية كانت تعمل فى مجال التآمر المكشوف أو المستور على الوحى الإسلامى بالذات لكى تنتهى هذه اليد الآثمة الملعونة إلى بسط الهيمنة على المسلمين بنقض اعتقادهم وتزييفه وتشويهه ، وبهدم أركانه الإسلامية ، ودعائمه الأولى هو مالا يستثنى العمل فيه بمعول من المعاول وفى مقدمتها معول (العقل) الذى هو طبيعة فى الإنسان ، وركيزة فى الوجدان ، وهو دليل الأدلة إلى الحقيقة ، ورشد النفس إلى النهج ، وهاديها على السبيل السوى ، وحاديها على الصراط المستقيم . (أحمد تسوكى) مجلة الرسالة المغربية .

★ ★ ★

كان إخوان الصفا فصيلاً صنع من هذا التلفيق الغنوصى لصورة الإسلام ، وقد اخترعوا أحاديث نبوية فى محاولة وضع الأفكار الأفلاطونية المحدثة والغنوصية على لسان رسول الله ﷺ .

وكان القرامطة فصلاً من الموكب الغنوصى الإسماعيلى .

وكان متصوفة وحدة الوجود بدءاً من الحلاج (القائل بوحدة الوجود) وبالعرفان الغنوصى سبيلاً للاتحاد بالله (تبارك وتعالى) والفناء فيه ، ومحيى الدين بن عربى المهندس الأكبر لنظرية وحدة الوجود .

وقد كانت هذه الفلسفات بعد انتصار الإسكندر المقدونى على الدولة الفارسية : هذه الدولة التى قامت على الفكرة الهلينية وتمثلت فى مدرسة الإسكندرية فى القرن الثالث المسيحى والتى لفقت ما بين إسرائيليات الديانة الإسرائيلية ، وديانة الفرس ومذاهبها ، والأفلاطونية المحدثة ، وتجسدت فى الغنوص الباطنى الذى يعتمد العرفان والذوق سبيلاً للمعرفة بدلاً من العقل والنقل .

وقد حاولت الغنوصية بعد معركتها مع المسيحية الاتجاه نحو الإسلام الذى واجه غنوص الفرس وفلسفة اليونان .

عبد الله بن سبأ وفرقة السبئية

يقول الشيخ رشيد رضا فى مقدمة كتابه (رسائل السنة والشيعة) : كان التشيع للخليفة الرابع على بن أبى طالب – رضى الله عنه – مبدأ تفرق هذه الأمة المحمدية فى دينها ، وفى سياستها ، وكان مبتدع أصوله يهودى اسمه عبد الله بن سبأ ، أظهر الإسلام خداعاً للمسلمين ، ودعا إلى الغلو فى على كرم الله وجهه ، لأجل تفريق هذه الأمة ، وإفساد دينها ودنياها عليها كما فعل أمثاله فى النصرانية قديماً وحديثاً و سبب ذلك ما كان من العداوة والقتال بين قومه اليهود ، وبين النبى صلوات الله عليه ، وكانوا هم المعتدين فيه ، وقد انتهى ذلك بنصر الله تعالى لرسوله ﷺ وإخراجهم ، ثم أجلى عمر بن الخطاب الخليفة الثانى – رضى الله عنه – بعده من بقى منهم من أرض الحجاز .

ابتدع هذا اليهودى بدعته ، وأعانه عليها آخرون من أهل ملته ، وأظهروا الإسلام نفاقاً ليقبل المسلمون أقوالهم الخادعة ، ومنها وضع الأحاديث وغشى رواة التفسير بالخرافات الإسرائيلية .

وسرت بدعة التشيع ، وانتشرت بين المسلمين بالدعاية السرية ، وكانت أقوى الأسباب فى العداوة السياسية بين كبراء الصحابة – رضى الله عنهم – بما كان يسمى فى عرف هذا العصر بسوء مفاهيم وحسن النية ، ومن راجع أخبار واقعة الجمل فى تاريخ ابن الأثير يرى مبلغ تأثير إفساد السبئيين لذات البين ، وحيلولتهم بالمكر والفساد دون ماكاد يقع من الصلح ، وقد طعنوا على على – رضى الله عنه – وهم الدعاة إلى القول بألوهيته (صفحات ٩٥ / ٩٦ / ١٠٣ من الجزء الثالث) .

ولولا أن خلف زنادقة الفرس هؤلاء السبئيين فى إدارة دعاة التفريق بين المسلمين بالتشيع والغلو على على – رضى الله عنه – وأولاده وأحفاده الظاهرين رضى الله عنهم لزال خطرها بعد ترك اليهود لزعامتها السرية ، ولكن الخليفتين الجليلين أبا بكر وعمر – رضى الله عنهما – حاربا الفرس وتم للثانى فتح جل بلادهم وثل عرش كسرى ، والقضاء على ديانتهم المجوسية فأحبط بذلك قلوب أمرائهم وزعمائهم من رجال الدين والدنيا ، وليس لذى العجز من الثأر بالقوة الحربية إلا المكايد السرية فتولى مهرة رجال

الفرس أمرها بالسعى لإفساد دين العرب الذى انتصروا بتعاليمه وجمعه لكلمتهم على الفرس وغيرهم ، ومنهم من تولى السعى للإفساد السياسى بتحويل الخلافة إلى العلويين ، ولما لم يجدوا من يواتيهم حولوها إلى العباسيين ، ثم صاروا يكيدون للعباسيين بما كان أغرب طرقهم فيه ماقام به البرامكة من جعل جميع إدارة ملك الرشيد الواسع وسياسته فى أيديهم حتى تنبه لذلك فبطش بطشته الكبرى بهم ، وكان أذكى من فطن لدسائس البرامكة ، وإلحاد الشيعة الباطنية ، ووقف على كثير من وقائعهم مما أورده العلامة المحقق القاضى أبو بكر بن العربى الأندلسى لما نوه به فى رحلته وفى كتابه العواصم من القواصم .

كان من تعاليم غلاة الشيعة بدعة عصمة الأئمة الذين استخدموا أسماءهم وشهرتهم لترويج سياستهم ، وبدعة تحريف القرآن ، ثم البدع المتعلقة بالقائم المنتظر ، محمد المهدى وكونه هو الذى يظهر القرآن التام الصحيح الذى يزعمون أن علياً كتبه بيده بعد وفاة النبى ﷺ ، وفتحهم أبواب التأويلات المنصوصة بما لايتفق مع شئ من قواعد اللغة ، فكان قدوة سيئة لجميع المبتدعة ، دع قول بعضهم بألوهية بعض أئمة أهل البيت الموروثة عند الإسماعيلية ، وغير الموروثة عند غيرهم من الباطنية ا هـ .

ومما يتصل بتاريخ ابن سبأ أن اتفق الطبرى السنى والنوبختى الشيعى (فرقة الشيعة) أنه كان يهودياً أسلم ليكيد للإسلام من الداخل ولبث الفتنة بين المسلمين .

آمن (ابن سبأ) بالوصية ، وأول من قال بالوصية ، وأن النبى ﷺ أوصى لعلى .

وقال ابن سبأ بكذب من قال إن علياً مات وإنما صعد إلى السماء كما صعد عيسى ابن مريم ، وقد اندس السبئية فى مختلف الفرق مع الاعتصام بالتقية والانصياع للحاكم الجائر فى انتظار المهدى .

هذه الآراء جاءت كلها من الفكر الشرقى : المسيحية واليهودية والزرادشتية والمانوية والمزدكية (وكل هذا وغيره فى تاريخ الرسل والملوك للطبرى ص ٣٤٠) .

القرامطة والاستشراق

حظى تاريخ القرامطة وعلاقاتها بمؤسسى المذهب الإسماعيلى والخلافة الفاطمية بعناية المستشرقين المبكرة ، فبدأوا دراستهم منذ أواسط القرن التاسع عشر ، وتحديداً عام ١٨٣٧ م من زوايا مختلفة بيد أن أول معالجة مركزة وثيقة لهذا الموضوع تمت على يد

المستشرق الهولندى (دى خويه) عن مانشره عام ١٨٦٢ رسالة عن (قرامطة البحرين) .

والمستشـرقون الذين يدفعهم التعصب الأعمى للمسيحية ، والحقد على الإسلام كتبوا وألفوا عن الإسلام والمسلمين منذ أوائل القرن ١٩ حتى منتصف القرن العشرين (٦٠ ألف كتاب) .

ورد ذلك فى كتاب الاستشراق والحلقة الفكرية للصراع للدكتور الديب . ولا شك أن كتاباتهم وتآليفهم كانت من أهم المصادر التى استقت منها الثقافة العربية الإسلامية الحديثة فظهرت تلك الثقافات وخاصة أن كثيراً من المستشرقين قام بالتدريس فى الجامعات العربية والإسلامية (ثقافة مشوهة) أما علماء الإلحاد فى روسيا فقد اختطوا لأنفسهم طريق الثورة حتى فى مواجهة الأديان ، فقال ماركس : لاغنى فى الوقت الحاضر عن شن أشد الحرب على تعاليم الدين أوهامه وخزعبلاته .

★ ★ ★

(القرامطة : نشأتهم ودولتهم وعلاقتهم بالفاطمية للمشرق فقال (بافادى خويه) يقول مؤلف كتاب الاشتراكيون والعرب والاشتراكية الدولية (عمر حليق) : ليس من الضرورى أن أبدأ من قصص الإنجيل والقرآن والكتب الدينية التقليدية ، وأن نقول بأن المواعظ والصلوات بضاعة لاتصلح إلا للأطفال هذا النوع من الدعاية الاشتراكية ضد الأديان تفيد كثيراً ، وإنما علينا أن نعيد تفسير قصص الدين وسيرة رجاله ومواعظهم وأحاديثهم وأقوالهم بقالب اشتراكى ، فإذا قلنا إن محمداً تأثر بطلب الحق للفقراء فهذا تفسير اشتراكى .

وقد اقترحت مجلة العلم والدين الصادرة عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفياتى بأن لا يقتصر مجهود الاتحاد السوفيتى ، ودول العالم الاشتراكى الدولى أمام البعث الإسلامى السياسى والعقائدى ، وإنما يحاول الاشتراكيون كذلك وفى كل مكان أن يعيدوا تفسير الدين الإسلامى كله تفسيراً دقيقاً من زاوية الاشتراكية العلمية . اهـ .

ويحاول الكُتّاب الذين شربوا ثقافتهم من كتابات الاستشراق ، ومن التفسير المادى للتاريخ فكانت مجلتا الكاتب والطليعة المصريتان تكتبان عن الإسلام وتاريخه على هذا النحو .

وقد فضح هذا التيار الماركسى دكتور مصطفى محمود فى كتابه (أكذوبة اليسار الإسلامى) فقال : إن هذا الغزو الفكرى قد اتخذ لنفسه طلائع زحف من النقاد احتلت

مواضع التقييم فى الصحافة والكتاب وراحت تتابع الأقلام التى تكتب واحداً واحداً إذا رأت أحدها يخرج عن الخط الأيديولوجى المطلوب وصلته مع الرجعية العميلة ، وصنفته مع قوى التخلف والاستعمار ، ومحاولة التخليط فى المفاهيم ، وركوب موجة الإسلام ، والهتاف بشعاراته تلك الشعارات الدولية من يمين ويسار التى هى لون من ألوان التدليس .

وهكذا لم يتمالك الرفاق المراكسة اليوم بالإسلام فينسون شعاراته مرة ويلبسونه شعاراتهم مرات . (عبد الله السيانى - مجلة الإرشاد) .

أهل الباطن المنتسبون إلى الإسلام

كتب الأستاذ أحمد المطلوب عن القرامطة وإخوان الصفا فقال :

روى ابن سنان أن ابتداء أمر القرامطة كان أواسط القرن الثالث الهجرى على يد واعية للإسماعيلية هم (حمدان بن الأشعب) الملقب بقرمط لقصر كان فى قامته قدم من بلدة خورستان إلى الكوفة فنزل بموضع يقال له (النهرين) وتظاهر بالزهد ، وأقام على ذلك زمناً كبيراً وكان يقول : إن الصلاة المفروضة على المسلمين هى خمسين صلاة فى كل يوم ، ثم خرج إنه يدعو إلى إمام من آل البيت فاجتمع حوله خلق كثير .

ومما يسر حركة القرامطة قيام ثورة الزنج الذى امتدت خمسة عشر سنة فى البصرة ، وأجمع على أن حركة القرامطة ماهى إلا خطوة من خطوات الإسماعيلية التى كانت تتحرك فى ثلاث شعب :

(١) بالكوفة - حسن الأهوانى بمشاركة حمدان بن الأشعب .

(٢) باليمن - ابن حوشب .

(٣) بالمغرب - أبو عبد الله الشيعى .

وقد سن قرمط على أتباعه نظاماً مالياً اجتماعياً أقرب ما يكون إلى الشيوعية حيث فرض عليهم الخمس .

وقد تحالف القرامطة مع العبدين اللذين زحفا على مصر كما زحف أبو طاهر القرمطى على مكة فدخلها ، وقتل أهاليها (٣٠ ألفاً) وكان يقول : الله يخلق الخلق وأفنيهم أنا (حاشا لله) ونهب الحجر الأسود .

ولا يختلف القرامطة عن الإسماعيلية إلا من حيث القدرة على تطبيق العقائد ، ولا يجوز القول بأن عقائد القرامطة باطنية فالسرية والكتمان محيا من قاموس القرامطة بعد ظهور دولتهم الإرهابية .

وكان زعيمهم يقول : ادع الناس بأن يقرب إليهم بما يميلون إليه ، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم ، فمن آنست منه رشداً فاكشف له الغطاء فإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا وإنا وإياهم مجموعون على رد نواميس الأنبياء . إن الجنة هى لهم فى الأرض والعذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام .

ويعتقد القرامطة بالتناسخ ، ويزعمون أن نظام تعاقب الليل والنهار ، وتولد الحيوانات لاينقضى أبداً ، وأن القيامة فى ظهور الإمام ، والميعاد هو عود كل شىء إلى أصله ، وقد امتدت حركة القرامطة زهاء قرنين اثنين سواء بالكوفة أم بادية الشام ومنطقة الأحساء والبحرين .

جماعة إخوان الصفا

اعتبرت الإسماعيلية فى القرنين الماضيين رسائل إخوان الصفا رسائل مقدسة فى مرتبة القرآن الكريم ويزعم أحد دعاتهم المعاصرين الدكتور حسن الهمزانى ، وهو من الإسماعيلية أن القرآن الكريم كتاب العام ورسائل إخوان الصفا كتاب الأئمة .

وأهم رسائلهم تتحدث عن وحدة الأديان .

ومن دعاواهم الباطلة أن العالم قديم ولا نهاية له .

★ ★ ★

ومن المقولات المضللة قول القرامطة بأنهم تجربة رائدة فى الاشتراكية مما جعل داعيتهم (عبدان) صاحب مدرسة ورائد جماعة فكرية وكشفت كتاباتهم عن دورهم فى التاريخ الإسلامى .

مما سموه العمل السرى الذى أقام تلك الدولة لتظل شوكة فى جنبى الخلافتين العباسية والفاطمية مما يمتد على قرن من الزمان ، وقد أجمع المؤرخون على اتهام القرامطة بإبطال التكاليف الشرعية فهم يزعمون أن الصلاة والزكاة والصيام نافلة ، وقد زعموا أن من عرف العبادة سقط عنه فرضها كما ادعوا تحول القبلة إلى بيت المقدس والحج إليه ، والصوم يومان فى السنة .

وحوت خزعبلاتهم فنوناً من التشكيك والتدليس والتلبيس ، قال الإمام الغزالى : إنما الذى يصح من معتقدهم أنهم يقولون لابد من الانقياد للشرع فى تكاليفه على التفصيل الذى يفصله الإمام ، وأن ذلك واجب على الخلق إلى أن ينالوا رتبة الكمال فى العلوم ، فإن أحاطوا من جهة الإمام بحقائق الأمور واطلعوا على بواطن الأمور الظواهر انجلت عنهم هذه القيود ، وانحطت عليهم التكاليف العملية فإن المقصود من أعمال الجوارح ينبه القلب لينهض ليطالب العلم ، فإن ناله استعد للسعادة القصوى فتسقط عنه تكاليف الجوارح .

ولقد أقام القرامطة مجتمعهم على الشيوع والإباحة مع إلغاء الملكية الفردية ، وقد تحول القرامطة مع الزمن إلى عصابة قاتلة تقتل خصومها وتستحل أموالهم وأعراضهم ، وتنشر الدمار والرعب فيما حولها حتى دخلوا إلى مكة واقتحموا البيت الحرام ، واقتلعوا الحجر الأسود فبقى فى حوزتهم عشرين عاماً .

ابن سبعين

انتحل التصوف فى سبته ، ورحل إلى المشرق بعد أن أخرجه حاكم سبته ، وأجمعت دواعى النقد عليه من الفقهاء وهو يرى كما يرى سابقه ابن عربى : أن الحقيقة أهلها قليل وأدعياؤها كثير .

اهتمامه بعلم الحرف ، وله مصنفات يلغز فيها تارة ، وبفصح تارة . أخذ عليه سلاطة لسانه فى مفكرى الإسلام كإمام الحرمين الجوينى ، ومما رمى به عبد الحق بن سبعين قوله : أن النبوة مكتسبة .

وقال ابن العماد : إن صح نسبة ما نسب إليه فهو من أعداء الشريعة المطهرة بلا ريب.

وقد اهتم بالفلسفات المتفرعة من الأديان السابقة فى محاولة إحياء هذا الفكر المسموم .

الحلاج

وصفه ابن النديم فى فهرسه بأنه رجل مشغول لمذاهب الصوفية ، وينتحل ألفاظهم ، ويدعى كل علم ، جسوراً على السلاطين مرتكباً للعظائم يروم قلب الدول ، ويدعى عن أصحابه الألوهية ويقول بالحلول ، ومذاهب الشيعة للملوك ومذاهب الصوفية للعامة .

ويدعى أن الآلهة قد حلت فيه ، وأنه هو الله تعالى جل وتقدس .

الخرمية والجهمية

كانت الحركة الخرمية أخطر الحركات التى استمالت قطاعات كثيرة من مجوس الفرس لتجديد الأفكار الوثنية التى كانت قبل الإسلام وكانت فارس هى مركز المجوسية ، ومن إيران خرجت الأديان الثلاثة التى هى نتاج الظروف الطبيعية والبشرية لبلاد الفرس والجنس الآرى بصفة عامة .

ومن فارس ظهرت المانوية والمزدكية أواخر القرن الخامس الميلادى .

المانوية تدعو إلى الزهد واستعجال الفناء وإباحة الملكية العامة فى النساء والأموال ، وقد نقلت هذه الأفكار فى عصر الإسلام عن طريق عبد الله بن سبأ وتلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق واليمن .

فقد كان الفرس ينظرون إلى ملوكهم وكأنهم كائنات إلهية اصطفاهم الله للحكم بين الناس ، وهم أصحاب نظرية الحق الإلهى .

قال رون : لم يعتنق نظرية الحق الإلهى بقوة كما اعتنقت فى فارس فى عهد الملوك الساسانان ، وكان الأكاسرة يزعمون أن لهم الحق وحدهم فى أن يلبسوا تاج الملك .

وكان الهدف هو محاولة إحلال المجوسية بديلاً للإسلام وكانت الحركة الخرمية من أخطر وأكبر هذه الحركات ، وقد استمالت قطاعات كبيرة من مجوس الفرس .

وتقوم تعاليم بابك على خليط من المزدكية والخرمية بالمجوسية فقد كان يعتقد بالحلول والتناسخ وكان يجيز الإباحة فى النساء والإقبال على المتعة واللذة .

وقد تنبهت الدولة العباسية إلى هذا الخطر وكانت نكبة البرامكة إحدى هذه النكبات .

أما مذهب الجهمية فقد حمل لواءه الجعد بن درهم ، وقيل أنه أول من قال بخلق القرآن وخاض فيه .

قال ابن تيمية : إن أول من حفظ مقالة التعطيل فى الإسلام هو الجعد بن درهم وأخذها الجهم من صفوان ، وأظهرها فنسبت إليه ، ودعا إلى التعطيل ومراده بالتعطيل حمل الصفات الربانية على المجاز المستلزم للتعطيل .

وقد كشف زيفه الإمام أحمد فى الرد على الجهمية ، والبخارى فى كتاب خلق

الأفعال ، والطبرى ، وابن حزم فى المفصل ، وابن عساكر وابن الأثير وابن حجر ، ومن تأويلات جهم أنه نفى أن يكون الله تبارك وتعالى ، مرئياً فى الآخرة ، وأنه يتكلم حقيقة وأثبت أن القرآن مخلوق .

والرد أن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله وقد درج المعتزلة على منهج الجهمية .

الفرقـة الإسماعيلية

هذه الفرقة عملت على هدم الإسلام وإضعافه ، وهى من الشيعة الغلاة ، والذين يؤلهون أئمتهم ويسبحون بحمدهم ، ولا يعرف فى الإسلام فرقة شراً منهم .

ومن يمعن النظر فى طقوسهم يجدها مأخوذة من اليهود ومن الماسونية بالذات ، وقيل إنها ترجع إلى أصل يهودى أول من قال بالرجعة عبد الله بن سبأ اليهودى ، من يهود اليمن ، ودخل فى الإسلام كيداً ودسيسة ، وبث أسباب الفرقة والاختلاف فى صفوف المسلمين ، ودعا الناس إلى القول بالرجعة .

ومن أشهر دعاتهم أبو عبد الله ميمون القداح الذى أصبح ولده عبد الله رأس القرامطة ، وهم اليوم فرقة كبيرة فى الهند ، ويعرفون بالندارية وزعيمها أغا خان ، ومنهم السليمانية باليمن ونجران ، ومنهم البهرة .

وللإسماعيلية صلة بجماعة زرادشت المجوس ، وهم يدعون إلى الانحلال والدعوة للإباحة والإلحاد وتحليل المحرمات ، وهدم القيم الأخلاقية ، ويجوزون نكاح البنات والأخوات واللواط وشرب الخمر ، ويعلنون الحقد على الإسلام والعروبة .

وتوجد بصمات اليهود والماسونية فى حركات الإسماعيلية التى أنجبت حركة هدامة هى حركة القرامطة التى قامت لهدم الخلافة العباسية ، وانتشر أتباعها فى العراق واليمن والبحرين وفارس ، ومن أخطرهم قرامطة البحرين الذين غزا بهم سليمان بن طاهر الكعبة المشرفة .

المزاوجة بين العقل والروح

يمثل الأشعرية نقطة التحول فى تاريخ الفكر الإسلامى حيث زاوج بين العقل والنقل ، فقد أدرك أن الهوية بين أهل السنة وأهل الاعتزال فى اتساع وازدياد ، ووجد

حركة الحنابلة تستعيد قوتها ، وأدرك أن الاعتزال صائر لامحالة إلى زوال ، فأزعجته هذه الحقيقة المهولة ، ولذلك تقدم إلى العمل فتنكر للمعتزلة وأعلن انفصاله عنها ورجوعه إلى حظيرة السنة حيث اتخذ طريقاً وسطاً بينها وبين مذهب المعتزلة وصادف هذا العمل قبولاً لدى العامة ماعدا الحنابلة .

وكانت حملة المعتزلة قد اشتدت على الفقهاء والمحدثين حتى لم يسلم من حملتهم فقيه معروف ، أو محدث مشهور فكرههم الناس ونسوا خيرهم وفضلهم ودفاعهم عن الإسلام وتصديهم للزنادقة .

فلما جاء الخليفة المتوكل أخذ فى نصرة السنة وتنكر للمعتزلة فدخلوا دائرة الضعف والاضمحلال .

وفى عام ٢٣٧ هجرية ضرب المتوكل ضربته الكبرى حين أعلن سخطه على المعتزلة ، وكان ذلك عاقبة الإسراف فى البطش واحتقار عقيدة الأمة واستخدام العلم فى مجال الفكر .

ورأى الإمام الأشعرى أن المسلمين وصلوا إلى فرق متناحرة تتناول الإسلام بالكفر والضلال ، ورأى المعتزلة الذين حملوا لواء الحرية فى الفكر الإسلامى قد خالفوا مذهبهم ووجد أهل الحديث تجمدوا عند ظاهر النصوص .

ورأى الأشعرى فى كل ذلك علامات السقوط والانهيار يهدد أمة الإسلام فاقتنع بأن من الخير لهذه الجماعة أن يلتقى العقليون والنصيون على مذهب وسط يوحد القلب (وهى تجربة أشبه بتجربة الإمام الغزالى) وانتهى الأشعرى خلال عزلته على هذه النتائج ، وخرج إلى الناس قال : إنى نظرت فتكافأت عندى الأدلة ولم يترجح عندى شئ على شئ فاستهديت الله تبارك وتعالى فهدانى إلى اعتقاد ما أودعته فى كتبى هذه وانخلعت عن كل ماكتب المعتزلة كما انخلعت من ثوبى هذا .

ويقرر العلماء أن أكبر أخطاء المعتزلة أنهم هدموا أعظم ركن من أركان مذهبهم وهو حرية الفرد فى اختيار أفعاله .

يقول الدكتور النشار :

الأشاعرة المتكلمون هم الذين فهموا روح الإسلام التى تتعارض مع روح الحضارة اليونانية فأبدعوا فى مضامين علم الكلام ومهدوا لقيام منطق تجريبى استقرائى سيكون له

أثره البعيد فى روجر بيكون ، وفى ابتعاث العلوم التجريبية الحديثة بأوروبا على العكس من ذلك أن الفلاسفة الفارابى وابن سينا وابن رشد لايمثلون الحقيقة ،بل هم مجرد خراج وأتباع لفلسفة اليونان .

التصوف الفلسفى

يرجع ابن تيمية ضلال الصوفية القائلين بالحلول والاتحاد والقائلين بسقوط التكاليف عن بعض الناس إلى أصلين باطلين :

أولاً : فهم لمعنى الوجود ، فمن قائل أن الموجود واحد فالوجود الواجب للخالق هو الوجود الممكن للمخلوق ، كما يقول بذلك ابن رشد وابن سبعين ، وابن الفارض .

وقد ثار ابن تيمية على مناحى الصوفية ومناهجهم وآرائهم وخاصة على ابن عربى وابن سبعين وابن الفارض ومن لف لفهم ، ونعى على ابن عربى بوجه خاص تلك الآراء التى يرى ابن تيمية أنها فلسفة يونانية خالصة ويقول فى رسالة (الفرقان بين الحق والباطل) : وهؤلاء كان من أعظم أسباب ضلالهم مشاركتهم الفلاسفة وتلقيهم عنهم ، فإن أولئك القوم من أبعد الناس عن الاستدلال بما جاء به الرسول ﷺ فإن الرسول ﷺ بعث بالبينات والهدى يبين الأدلة العقلية ، ويخبر الناس بالغريب الذى لايمكنهم معرفته بعقولهم ، وهؤلاء المتفلسفة يقولون إنه لم يعد الناس علماً بخبره ، ولا بدلالته ، وإنما خاطب خطاباً جمهورياً ليصلح بين العامة فيعتقدوا فى الرب والميعاد اعتقاداً ينفعهم وإن كان كذباً .

وحقيقة كلامهم أن الأنبياء تكذب فيما تخبر به للمصلحة ، فامتنع أن يطلبوا من خبرهم علماً وإذا لم تكن أخبارهم مطابقة للمخبر فكيف يثبتون أدلة عقلية على ثبوت ما أخبروا ولهذا لا يعتنون بالقرآن ولا بتفسيره ولا بالحديث ولا بكلام السلف وإن تعلموا من ذلك شيئاً فلأجل تعلق الجمهور به ليعيشوا بينهم بذكره (عبد العزيز المراغى) .

وقيل كتب ابن تيمية إلى الشيخ نصر المنجى عشر رسائل يكشف فيها عن عقيدة ابن عربى وابن الفارض وابن سبعين ، ويتقدم عليه أن يعدل عن مسايرة هذه العقائد ومسايرة المتخلين عن الأوامر والنواهى ويشرح لهم التوحيد الحق ويبطل لهم الحلول والاتحاد وينتهى إلى عواقب انتشار هذه الأقوال وخطرها على الإسلام ، ويبين له أن هذه لم يأت بها كتاب ولاسنة إلى آخر ماكتبه فى رسالته المطبوعة فى (مجموعة الرسائل والمسائل) .

ويقول الشيخ أبو الحسن الندوى : إنه كان من أعظم مافعله ابن تيمية أنه كان يرد مذهب الشيخ محيى الدين بن عربى فى وحدة الوجود بكل صراحة وإعلان ، فقد كان له جماعة كبيرة من الأتباع والأنصار فى مصر والشام كما كانت له طائفة كبيرة من العلماء والمشايخ يعتبرونه عارفاً كبيراً ومحققاً جليلاً ولعله شرب التوحيد ، والشيخ الأكبر الذى لايدانيه أحد فى ذلك العصر .

وكان الشيخ محيى الدين بن عربى قد توفي عام ٦٣٨ قبل ولادة ابن تيمية بثلاث وعشرين سنة وكانت مؤلفاته متداولة بين الناس وبخاصة (الفتوحات المكية) أما ابن تيمية فكان قد درس الفلسفة والتصوف والإشراق بتأمل ودقة ، ومن بين ما قرأ من الكتب هذين الكتابين فكان يقتطف من مؤلفاته عبارات ويرد عليها .

وكان قد توصل بها إلى نتيجة أن التوفيق بين ماجاء فى هذه الكتب من أفكار وآراء ، وبين تعاليم النبوة مستحيل .

إنه يقول وهو يتحدث عن مذهب الشيخ ابن عربى :

(يقولون لابن عربى وأتباعه) إن الوجود واحد ويقولون إن وجود المخلوق هو وجود الخالق ، لايثبتون موجودين خلق أحدهما الآخر ، بل يقول إن الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق .

فأما الوجود فلا يتصور أن يكون فيه رب وعبد ، وخالق ومخلوق وداع ومجيب إنما الوجود لما فاض على الأعيان فظهر فيها حصل التفرق بين جهة الأعيان كتفرق النور فى الزجاج لاختلاف ألوانه ، ويقولون إن عباد العجل ما عبدوا إلا الله ، وأن موسى عليه السلام أنكر على هارون لكون هارون أنكر عليهم عبادة العجل ، وأن موسى كان يعتبرهم من العارفين الذين يرون الحق فى كل شيء بل يرون عين كل شيء .. اهـ .

تجـدد الفكر الباطنى

وهكذا لم تنطفئ نيران الفكر الباطنى ، بل انتقلت إلى العصر الحديث ، فكان له بقية باقية تحافظ على مضمونها ، وإن تغيرت الأشكال والأساليب والأسماء كالبهائية والبابية والقاديانية والباطنية .

وهى مسميات جديدة للحركة الباطنية القديمة ، وإن ظهرت فى ثوب جديد يروج للفكر الباطنى القديم على أنه يمثل الفكر الحر والعقلانية .

وبعض هذه المذاهب ظهر بصفة خاصة فى الطرق الصوفية ذلك لأن الفكر الباطنى تغلغل فى فكر الصوفية بداية من القرن الخامس والسادس الهجريين ، ومن ذلك أن يقدس شيخ الطرق ويمنحوه من الصفات التى منحها الباطن لأهلهم .

إن آية الخطر هى اهتمام المستشرقين والشيوعيين والعلمانيين واهتمام أتباعهم بهم حيث يعتبرونهم دعاة حركة من حركات التحرر والإصلاح ويصورها على أنها حركات تقدمية تنشد العدل الاجتماعى والحرية والمساواة وهدفها فى الحقيقة هو هدم وتقويض دعائم المجتمع الإسلامى .

★ ★ ★

ولا تزال تعلن الجامعات فى الغرب وفى البلاد العربية تواصل المعركة .

وفى السربون بفرنسا يرأس قسم الدراسات الإسلامية محمد أركون الذى تعاون مع مجمع اللغة العربية بالقاهرة على إخراج كتاب (الفتوحات المكية) فى بضعة وثلاثين سفراً لنشر فكر ابن عربى الذى تحتاج إليه أوروبا هذه الأيام (كما يقول الشيخ محمد الغزالى رحمه الله) .

وقد عرف أركون بولائه للغرب ، وكرهه للإسلام ، ونشاطه المحموم ضد العرب والمسلمين ، وفى مقدمتها السعى لإحياء أفكار ابن عربى كجزء من تضليل أمتنا وتعتيم الرؤية أمامها إذ قلب ابن عربى كما وصفه نفسه :

(دير لرهبان وبيت لنيران وكعبة أوثان إنه تثليث وتوحيد ونفى وإثبات) .

لقد أودع السجن فى أيام العصر الأموى ، ولكن أصدقاءه نجحوا فى تهريبه وأعان على إطلاقه من يريد أن يبقى مع غيره من زعماء الباطنية يفتتون الجبهة الداخلية وينشرون الخرافات القاتلة لعقائدنا وأخلاقنا .

قالت موسوعة لاروس : إن محمداً كان كردينالاً يطمح فى أن يتولى منصب البابوية فلما عجز عن تحقيق ذلك اختلق ديناً جديداً يشبع أطماعه .

إن الدور الذى يقوم به الاستشراق اليوم عن دوائر المعارف نسج الأكاذيب عن تاريخنا وعقائدنا .

★ ★ ★

فتنة خلق القرآن
وأحمد بن حنبل - ٨٥٥ م

كان للإمام أحمد بن حنبل دوره الأصيل إبان حركة محنة خلق القرآن ، والتى بدأها المأمون فقد قام ابن حنبل بما لم يقم به غيره من تعزيز روح المقاومة فى مناهضة جهود المأمون والمعتصم والواثق وعمالهم فى قمع أنصار السنة ، قد كان طوال مدة المحنة رأساً يقتدى الناس به وينتظرون منه قولاً ليقولوا به .

وفى موقف ابن حنبل اعتباران :

الأول : الإحساس بأنه لابقاء للإسلام إلا ببقاء السنة ففى سلامتها سلامته وفى صونها صونه ، ولو أنه أتيح للحركة العقلية التى نهض المعتزلة بها من أجل نبذ السنة فمن الراجح أن يكون لمبدأ حرية الفكر الذى يدين بالعقل دون النقل ولا ينزل على حكم سلطة ما - أثر انحلالى يوهن من قوة الإسلام وتماسكه كما أنه يجعل الإسلام أكثر قابلية للتأثر بما يطرأ عليه من خارجه من عوامل التعديل والإصلاح حتى يكون أكثر انطباقاً على نواميس العقل ، وأدنى إلى مقتضيات واحتياجات التصور المتتابعة .

والمعروف بأن إثارة محنة خلق القرآن كان الدافع إليها فى حقيقة الأمر ميل المأمون ، ومن تبعه من الخلفاء إلى سيادة الجبهة الأوثوقراطية وقوامها من الوجهاء ، والكتاب الذين أصبح جلهم من الفرس الراغبة فى تعزيز سلطان الخليفة وسلطانها ، وفى كسر شوكة العرب والقضاء على أعدائها ، وقد كان من أبرز وسائل أفراد هذه الجبهة لتحقيق غايتهم أن يحرروا الخليفة من إذعانه لحكم الشريعة نظراً إلى أن هذا الإذعان ، إنما يعنى إذعانهم فى ممارسة سلطانهم لرقابة منافسيهم وخصومهم ألا وهم طبقة الفقهاء وعلماء الدين .

وقد وجدوا فى إحدى نظريات المعتزلة ماقد يصلح لأن يستندوا إليه فى سبيل تحقيق غرضهم ، ذلك بأن القول بأن القرآن غير مخلوق ، وأنه قديم قدم الله (تبارك وتعالى) إنما يعنى أنه مساو له فى القدر وتعبير كامل عن حقيقته فى حين أن القول بأن القرآن مجرد كلام خلقه يجعله بمثابة غيره من المخلوقات كالناس والأنعام والخيول فليس له

إذن من المقام مايعزوه الفقهاء إليه وبالتالى فإنه يمكن للخليفة أن يأخذ بأحكامه أو يجنبها جانباً وفق ماشاء .

فالقول بخلق القرآن يضعف من الأساس الذى عليه القول بأن القرآن دستور المجتمع والنظام الأساسى للدولة فى حين أن القول بخلق القرآن يجعل الإمام فوق الشريعة ، وليس الشريعة فوق الإمام .. ا هـ .

وهكذا نرى كيف أن الاستشراق والغزو الثقافى قد استغل حالات معينة ، فإذا كانت الصحوة الإسلامية قد حققت شيئاً ذا بال ، فهو انكشاف مخططات المؤامرة التى ترمى إلى صهرنا فى بوتقة الأممية ، وإن كانت لنا دعوة واحدة فهى المحافظة على « الذاتية الإسلامية المتميزة » من الانصهار حتى يقوم أمران :

قال تعالى : ﴿ **صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة** ﴾ [سورة البقرة الآية : ١٣٨] .

أولاً : المجتمع الربانى فى الأرض .

ثانياً : تبليغ الإسلام للعالمين .

والواقع أن كل هذه النحل التى حاول التغريب ترويجها أمثال البهائية والقاديانية ودعاوى توحيد الأديان والحوار وإحياء مفاهيم ماقبل الإسلام والاهتمام بالفلكلور ، والتراث الفلسفى والصوفى والباطنى

(الحلاج وابن عربى وابن سبعين) والاهتمام بالشعر الإباحى (أبى نواس وبشار) والادعاء بأن القرن الثانى الهجرى - كما قال طه حسين - كان عصر شك ومجون وإحياء للشعر المنسوب إلى الخيام ، وإحياء جبران وإخوان الصفا والزنج والقرامطة والأغانى وألف ليلة .

وكان دعاوى تلاميذ مدرسة (الفرنكفونية) .. عن هدم (البرهان والعرفان) وتزييف البيان وقد تأكد أن الفرقان والبرهان هما شطرا النقد الباطنى .

إيماناً أن البرهان هو دعوة الفلسفة وأرسطو والرياضيات ولسقوط استعلاء العقلانية والعقل ولقد كان من الضلالات الماحقة إحياء مجددو الاعتزال أحمد أمين ومحجوب ابن ميلاد وفاروق الدملوجى ، وزكى أبو شادى ومحمد غلاب وهدى حسن جار الله « هؤلاء الذين تابعوا المعتزلة فى القول بأن الشريعة الإسلامية دنست بالجهالة واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة » . ا هـ .

الهجوم على مشروع أسلمة العلوم الإنسانية

تعرضت الدعوة إلى أسلمة العلوم إلى حملات ضارية تستهدف وأدها فى مهدها واقتلاعها من جذورها ، والحكم عليها مسبقاً بالعقم وعدم الجدوى .

يقود هذه الحملة عدد من العلمانيين والفلاسفة الماديين المهاجمين لأسلمة العلوم الإنسانية يستندون فى نقدهم على الاحتجاج بالمنهج العلمى وما يستلزمه من موضوعية ، وينفون أن تكون هناك (معرفة إسلامية) ، ومعرفة غير إسلامية ، ويخلطون خلطاً مقصوداً بين ما يتصل بالعلم وما يتصل بالدين ، وهذا يعنى أن المعترضين لايفهمون الفرق بين الإسلام وبين الأديان ، وأن هناك فعلاً علم نفس مسيحى وعلم نفس يهودى .

وأن هذه العلوم تستمد أصولها وجذورها من التراث المسيحى واليهودى على النحو الذى كشف عنه الدكتور صبرى جرجس وغيره .

وأكبر أخطاء المهاجمين هو قولهم أن العلوم الاجتماعية والإنسانية فى عصرنا قد استقرت على المنهج التجريبى الخالص مثلها كمثل العلوم الطبيعية .

إن أكبر أخطاء الغرب أن وقعت هذه العلوم فى أسر العلوم الطبيعية أولاً ثم فى مخططات الغرب السياسية ، فقد خفقت للغرب أو للشرق .

كذلك فقد استعانت الحكومات الاستعمارية ببعض العلوم الإنسانية وبخاصة (الإنثربولوجية الاجتماعية) فى توطئة أركان الاستعمار على نحو ماكان يحدث فى المستعمرات البريطانية فى أفريقيا حيث يجرى العلماء دراسات خاصة بين القبائل والشعوب الخاضعة لحكمها ولتزيد من قبضتها عليهم ، ومن شأن هذا أن يلقى ظلالاً كثيفة على ادعاء الكثيرين من المشتغلين بالعلوم الإنسانية بأنهم يتوخون الموضوعية فى دراساتهم وبحثهم .

من هنا نحب أن تكون هناك تفرقة واضحة بين أصحاب العلوم الطبيعية وأصحاب العلوم الإنسانية والاجتماعية .

وإذا تقرر أن علم الاجتماع الغربى قد عكس أيديولوجيا الفكر الغربى وكذلك علم الاجتماع الماركسى فقد سقط تماماً مفهوم (الموضوعية) وسلامة المنهج وتحريره من التبعية .

ومن هنا فقد تقرر أن العلوم الاجتماعية ليست علوماً مجردة خالصة لوجه العلم والحقيقة ، ولكنها علوم ذات مضامين أيديولوجية وتبعية سياسية فى النهاية .

وإن الباحث فى هذه العلوم من حيث إنه إنسان لايمكنه أن يتخلى عن انتماءات الأيديولوجية وتوجهاته الفكرية والسياسية والعقدية .

ولما كان من المحال أن تتخلص العلوم الإنسانية من الأحكام القيمية والانتماءات الأيديولوجية والتوجهات الفكرية ، فإلى أى قيم وأيديولوجيات وعقائد ينبغى أن يتوجه باحثونا ؟!!.

هل يولون وجههم شطر المعسكر الشرقى بفلسفته الماركسية وماديته التاريخية أم يولون وجههم قبل المعسكر الغربى ومذاهبه الفلسفية من برجماتية ووجودية ووضعية ؟ .

إن دعوتنا هى التى أدت إلى التحرر من التبعية الفكرية الأجنبية لتحل محلها دعائم قوية ذات جذور فى أعماق ثقافتنا .

ولئن اكتشف بعض الباحثين عندنا أن النظريات الاجتماعية العربية قاصرة ، فلم لايحاول تقديم نظريات بديلة تستمد قيمها من عقيدتنا الصحيحة ؟ .

إن بعض علماء الاجتماع الغربيين (ليذبرج وواتركن) يعلنون أن أحد العلوم الإنسانية وهو علم الاجتماع لايزال عاجزاً حتى اليوم عن تقديم الحلول العملية لمشكلات العالم الاجتماعية فلماذا يوصد الباب أمام من يحاول إخراج هذه العلوم من أزمتها ؟ .

وما الغريب فى دعوة أصحاب منهج الأسلمة إلى أن هذه العلوم يجب أن تستند إلى العقيدة (أو الأيديولوجية) الإسلامية وأن ترتوى من منابعها الصافية .

أفمن أسس هذه العلوم على عقيدة صحيحة راسخة خير أمن أسسها على أيديولوجيات مشكوك فى صحتها ؟ **﴿ أفمن أسس بُنْيانَهُ على تَقوى من الله ورضوانٍ خيرٌ أم من أسَّس بنيانه على شَفَا جُرُف هارٍ فانهارَ به فى نار جهنَّم ﴾** [التوبة ، الآية : ١٠٩] .

إن مفهوم لفظ (الدين) عند غير المسلمين مخالف لمفهومه فى الإسلام فمن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يجد فيه أنظمة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية ، أما الإسلام فهو دين شمولى يشمل تعاليم الربانية بتنظيم حياة الإنسان فى الدنيا وتدبير شئون المجتمع

إن قصور الأديان الأخرى وعجزها عن تقديم حلول لمشكلات الإنسان النفسية

والاجتماعية والاقتصادية قد أدى إلى ظهور العلمانية وهى الدعوة إلى فصل الدين عن أمور هذا العلم ، وأن هذا له ما يبرره فى الغرب ، فإن الترويج له فى الأمة الإسلامية هو تقليد أعمى إذ كيف يتسنى للمشتغلين بالعلوم الإنسانية فى هذه الأمة أن يطرحوا جانباً الشريعة الإسلامية ومصادرها ، وفى مقدمتها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؟ أفلا تعين توجيهات القرآن علماء النفس على إيجاد الحلول لكثير من المشكلات والأمراض النفسية ؟.

ألا يعين الكتاب والسنة علماءنا على الفهم الصحيح لنشأة الدين ، وهو فهم مخالف لتفسير (أو جستكونت) الذى زعم أن تطور العقل البشرى مر بثلاث مراحل : الدينية والميتافيزيقية والوضعية ؟ .

وأن المرحلة الدينية ثلاث مراحل : الوثنية ومرحلة تعدد الآلهة ثم مرحلة التوحيد أما التفسير الإسلامى فهو مباين تماماً لهذا الترتيب إذ التوحيد هو الأصل ، وهو دين الفطرة الذى كان عليه آدم أول البشر ثم طمست عقيدة التوحيد شيئاً فشيئاً ليحل محلها الشرك والتعدد والوثنية .

ألم يتطرق القرآن والسنة إلى ميدان الاقتصاد والمعاملات التجارية ؟

ألم يفتح الإسلام باب التجارة ويغلق باب الربا ؟

ألم يحدد نظام المواريث والزكاة وأوجه انفاقها ؟

إن الدين لايمكن إغفاله عند الأخذ بالاكتشافات العلمية فى أمتنا الإسلامية وأنه لامناص من عملية الأسلمة التى يرفضها العصريون .

وهى عملية تستهدف غربلة الاكتشافات العلمية فى شتى المجالات ابتغاء تنقيتها من العناصر غير الملائمة وانتقاء العناصر الصالحة منها أو إجراء تعديلات .

(عبد الفتاح أحمد فؤاد) .

إعادة كتابة العلوم الإسلامية

إن المسلمين حينما تربوا على الإسلام أدركوا أن قضية الاهتمام بالناحية العلمية هى قضية تعبدية بالدرجة الأولى وليست مجرد الحصول على شئ من القوة أو الغلبة أو التسلط فى هذه الدنيا فحين يتعرف المسلم على بديع صنع الله تبارك وتعالى فى هذا الكون فهو يتعرف على خالقه .

لقد أحصيت الآيات القرآنية التى تحض الإنسان على النظر فى الكون فوجدتها تفوق ٧٥٠ آية ، إلى جانب القصة لابد منها للقيام بأعباء الاستخلاف الإنسانى وتسخير الكون كما أراد الله .

لم يفرق الجيل الأول من المسلمين (وهو الجيل القدوة) بين العلم التجريبى وبين العلوم الشرعية من الفقه والتفسير ، فكان المسلم فلكياً ومفسراً وطبيباً وفقيهاً .

إن أهم ما يشكو منه العلماء الآن قضية التفتيت فى المعارف ، فالتخصص الدقيق جعل الناس ينحصرون فى دوائر ضيقة فجاءت نظرتهم للحياة نظرة جزئية جداً نظرة غير إنسانية لأنها غير متكاملة .

إن النظرة الكاملة هى التى يستطيع الإنسان من خلالها التعرف على قوانين الله فى الكون والقيام بواجبات الخلافة فى الأرض على أحسن وجه فكلما تعرف على قوانين أكثر كلماكانت قضية عمران الحياة على الأرض أيسر .

إنه لايمكن أن تتحقق وظيفة الإنسان الشرعية على الأرض مالم يحصل على العلم التقنى ، فالمجتمع الإسلامى يحتوى على كل التخصصات .

إن العلوم الشرعية هى ما يجب أن يفهم من الدين بالضرورة وهى فرض عين على كل مسلم أما فيما وراء ذلك من التخصصات فيبقى فروضاً كفائية .

أما التصور الإسلامى لقضية العلم فهو يختلف عن التصور الغربى الأوربى حيث يتلقى العلم اليوم من خلال فلسفة .

حمل العالم الإسلامى تراث البشرية من المعارف فى الحضارات السابقة والمعاصرة لبعثة محمد ﷺ ، حضارة الفرس والروم والهند والصين ومصر القديمة جمع كل ذلك وصفاه بمنطق النظرة الإسلامية الصحيحة وأضاف إليه إضافات أصيلة ، وحين أخذته عنه أوروبا بعد ذلك عن طريق المدارس الإسلامية فى الأندلس وجنوبى أوروبا بصفة عامة (صقلية وجنوبى إيطاليا) ظهر الفارق واضحاً فالمسلمون لم يجدوا فى تعاليم الإسلام وأصوله ما يمكن أن يقف حائلاً دون نشاطهم العلمى بل وجدوا فى القرآن وأحاديث الرسول ﷺ ما يدفعهم إلى ذلك دفعاً بينما كان الموقف مختلفاً تماماً فى عصر النهضة عندما بدأت أوروبا تأخذ بالأسباب انطلاقاً من القاعدة التى عملتها لهم الأمة الإسلامية ومدارسها فى شمالى أفريقيا وجنوبى أوروبا .

الإسلام والعلوم المادية

إن دارسى تاريخ العلوم فى أوروبا قد سلموا الآن بأن العلوم المادية التجريبية إنما ولدت هى ومناهجها فى حجر الإسلام ونمت وترعرعت فى حضانته فلا تناقض بينها وبين الإسلام .

وهى علوم لاتستطيع أن تعدل شيئاً فى مسائل الإيمان أو الإلحاد ذلك أن الحقائق التى كشفت عنها هذه العلوم أدخلت عدداً من العلماء فى الإيمان بالله تبارك وتعالى .

حيث لا تعارض بين نتائج هذه العلوم وبين الإسلام .

تقول العلوم : إن المادة لاتفنى ولا تستحدث .

والقرآن الكريم يقول : ﴿ **كل شئٍ هالكٌ إلا وجْهَهُ** ﴾ [سورة القصص ، الآية : ٨٨] .

وفى الإسلام كل شىء ماعدا الله مخلوق مستحدث ، وإن كلاً من المادة والروح قد خلق من عدم ولابد أن يهلك فهم يحاولون أن يجعلوا إلهية للعلم .

وقد اتفق علماء المناهج على أن معارف الإنسان العلمية نسبية ، وليس هناك تناقض بين العلم الحديث والإسلام ، بل تعارض جزئى يمكن إصلاحه عن طريق الفهم الصحيح للقرآن والسنة هذا هو التوفيق الحقيقى بين الإسلام وحضارة العصر .

وهذا ما عبر عنه ابن تيمية فى كتابه درء تعارض العقل والنقل .

كشفت الأبحاث المنصفة فساد دعوى أن التفكير العلمى غير موجود عند المسلمين ؛ ذلك أن المسلمين هم بناة المنهج العلمى والتجريبى ، والبحث العلمى الحديث يستمد مناهجه من الخطة التى وضعها علماء الإسلام والقائمة على عنصرى : الملاحظة الموضوعية للحوادث والأشياء والتجريب .

وبهذا المعيار العلمى نجد أن التفكير لدى المسلمين هو تفكير علمى ولا يخضع إلا بشروط البحث العلمى السليمة وتتمثل خصوصيات الفكر العلمى عند المسلمين كما يقول الدكتور عبد الحميد الهاشمى فى العناصر الآتية :

أولاً : أنه فكر موضوعى لايصدق الخرافة .

ثانياً : أنه فكر يعتمد الملاحظة الموضوعية طريقاً للعلم واكتشافاته .

ثالثـاً : أنه فكر يستخدم التجريب سبيلاً إلى اكتساب المعلومات واكتشاف القوانين العلميـة .

رابعـاً : أنه فكر متواضع وفى أمين ذو أخلاق نبيلة .

خامساً : أنه فكر إنسانى عالمى النزعة .

الإسلام ثقافة وحضارة معاً

تقوم الفلسفات المادية الغربية على أساس النظرة الإنسانية التى تجعل من الإنسان مبدأ وغاية وتجعل هذه الحياة : هى الحياة الأولى والآخرة .

هذه النظرة لاتتفق مع نظرة الثقافة العربية الإسلامية ، التى تجعل من هذه الحياة مرحلة أولى لها ما بعدها بكل ما يترتب على ذلك من مواقف اجتماعية وأخلاقية ودينية وما يتصل بها من علاقات ومعاملات وسلوك وقيم تختلف اختلافاً كبيراً عما هو قائم فى الغرب أما فى عالم الإسلام فإن هناك القيم الثلاث الأساسية :

الدين والتراث واللغة

الدين يعتبر أسلوباً للحياة ، فالدين يصبغ الحياة الاجتماعية فى العالم العربى بصبغة معينة متميزة تتجاوز كل الاختلافات الدينية والنعرات المذهبية والانتماءات العرقية كما أنه ينظم العلاقات بين الناس ويفرض عليهم نسقاً من القيم ، وأنماطاً من السلوك وطريقة التفكير بل هى نظرة معينة للإنسان والكون والمجتمع والعالم الآخر بحيث يصعب الفصل فى واقع الحياة اليومية بين ماهو دينى وما هو غير ذلك .

وبذلك يعتبر الإسلام ثقافة وحضارة معاً ، فهو أحد مقومات ومكونات الثقافة العربية الإسلامية .

أما التراث فهل يمثل البعد التاريخى أو الزمانى للثقافة باعتباره سجلاً للحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية خلال التاريخ .

فالتراث مقوم من مقومات الثقافة العربية الإسلامية مما أنتجه التفاعل والتعاون بين المقومين : الدين واللغة من نتاج فى مقومات مجالات الفكر المختلفة من فلسفة وعلم الكلام وتصوف وإلهيات وكذلك فى مجال الأدب والفن والعلم (سواء صدر من العرب

المسلمين أو غير المسلمين) ممن تأثروا بالإسلام من حيث هو أسلوب الحياة أو اتخذوا من اللغة العربية أداة للتعبير .

ولقد كان التراث أداة ربط بين الماضى والحاضر .

وقد تعرض التراث لكثير من الهجوم والاستخفاف .

ولما كان التراث يمثل دوراً مهماً فى تشكيل العقل الإسلامى المعاصر لذا وجب تقدير دوره الهام .

وليس صحيحاً ما يردده البعض من أن التراث جزء من الماضى أو أنه نشأ فى ظروف وأوضاع اجتماعية وسياسية وثقافية معينة فى محاولة مضللة ترى أنه استنفد أغراضه أو أنه ينظر إليه لدوره التاريخى فقط ، وليس صحيحاً ما يدعى البعض من أن إحياء التراث من شأنه تكبيل العقل العربى أو تقييده أو منعه من الانطلاق .

أما بالنسبة للغة العربية فإن أهميتها تأتى من حيث هى وسيلة ، للتواصل والتفاهم وأداة للفهم والتفكير والتعبير ونقل الأفكار فضلاً عن أنها مظهر لوجود رابطة ذهنية ووجدانية بين كل الناطقين بها ، فهى عامل وحدة وتوحيد وزاد من فاعليتها أنها لغة القرآن الكريم كما أن القرآن الكريم عمل على بقائها واستمرارها وحفظها من الاندثار ، ومن التغيير إلا فى حدود معينة بحيث لم تقطع اللغة العربية حاضرها تماماً عن ماضيها بالرغم من القرون الطويلة التى مرت بها .

وقد جرت المحاولات من أجل التأثير على فاعلية اللغة العربية وقدرتها على التعبير عن معطيات العلم الحديث والحضارة الحديثة بوجه عام .

وارتفعت الدعوة إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية أو اتخاذ اللهجات العامية بدلاً من الفصحى .

ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل وذهبت أدراج الرياح .

ولقد تعرضت هذه المقومات (اللغة والدين والتراث) لدرجات متفاوتة من التشكيك فى أهميتها وقيمتها وجدواها وفاعليتها .

ولكن كل هذه المحاولات انتهت بالفشل وأثبتت اللغة العربية قدرتها على الأداء والبقاء وحمل أمانة الإسلام إلى العالم كله .



أسس البحث العلمى عند المسلمين

الاتهام بأن حضارة الإسلام لم تعرف البحث العلمى ، ولم تعرف أسسه وقواعده خاصة فى مجال العلوم المختلفة من طب وكيمياء وفلك وفيزياء قول باطل . والزعم بأن جهود علماء العربية قد اقتصرت على مانقل من الأجيال السابقة ، وأنها كانت مقصورة على نقل وترجمة تراث الإغريق والفرس والهنود والسريان قول مضلل .

وتكفى فى الرد على ذلك كلمة لبيرونى (أعظم عقلية فى العصور الوسطى) والذى استطاع أن يقيس قطر الأرض .

يقول : إنما فعلت ماهو واجب على كل إنسان أن يعمله فى صناعته من تقبل اجتهاد من تقدم بالمهنة ، وتصحيح خلل إن عثر عليه ، وتخليد ما يلوح أن فيها تذكرة عمن تأخر عنه الزمان وأتى بعده .

لم يقبل علماؤنا فى قضية النقل عمن سبقوهم إلا الصحيح ، ويصححون مافيه الخلل ، ولا يتم التصحيح إلا عن إحاطة كاملة بالموضوع المطلوب تصحيحه وامتلاك أدوات البحث والنقد التى تعين على معرفة مكامن الخطأ وتكشف الستار عن الصحيح وتعرف به .

وقد تشدد المسلمون فى تطبيق هذه القاعدة وقد كان علما الحديث والفقه يستندان فى الدرجة الأولى على الدقة واالأمانة فى ذكر المصدر المأمون .

وبجوار الأمانة والدقة فى النقل كان هناك تصحيح النظريات الخاطئة ورفع المعلومات غير الحقيقية .

أولاً : ابن النفيس يرفض قبول نظرية جالينوس فى الدور الذى تنقله الرئتان بالنسبة لانتقال الدم .

ثانيــاً : لم تقنع نظرية بطليموس فى تكوين الأرض جميع العلماء المسلمين .

ثالثــاً : الكندى خالف أرسطو فى تعليل نشأة المطر .

رابعــاً : إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة ينتقد كتاب أرسطو فى الآثار العلوية حيث انتقد رأيه فى انقطاع العمارة تحت مدار المتقلب الصيفى .

خامساً : اهتمام المسلمين بالتجربة العلمية فى الحساب .

إجراء التدبير والمشاهدة والاستنتاج .

وكان الرازى يدرس تأثير العقاقير الجديدة على الحيوان ، ويخلص إلى النتائج التى يراها صواباً .

سادساً : قرر العلماء أن العلم الذى حث عليه القرآن والسنة هو كل معرفة مستندة إلى الاستدلال .

فالعلم فى الإسلام يشمل مجالات عدة يقصر عن الدلالة عليها كلمة العلم بمفهومها الغربى الحديث فهو يشمل علوم الدين وما وراء الطبيعة ومجال الماديات وما يقوم على الملاحظة والتجربة .

دعا القرآن الكريم إلى العلم وإلى البحث عن حقائق الوجود ، وفى أكثر من موضع دعا إلى العلم والقراءة والتدبر والنظر والتأمل فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وتكررت فيه كلمات : العلم والحكمة والعقل والفكر والنظر والألباب والبرهان .

وقرر القرآن الكريم أن للإنسان إرادة ولكن هذه الإرادة محدودة وفى القرآن آيات توحى بأن الإنسان مختار : ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ .

[سورة الكهف ، الآية : ٢٩]

ليس هناك جبرية مطلقة ، وليس هناك اختيار مطلق ، والحرية الحقيقية فى الإسلام هى حرية الإنسان التى تتمثل أولاً فى أن للإنسان قدرته على الاختيار وأن يرتفع بنفسه فوق شهواته ونزواته فلا يكون عبداً لها واستشعارنا دائماً بأن الله تبارك وتعالى معنا دائماً هو العلاج الحاسم لكل أنواع القلق الممكنة ، وليست ممارسة الحرية التى يدعو إليها سارتر ، والتى تؤدى إلى الضياع والتردى فى الهوة السحيقة : هوة العدم ، وفى الإسلام لايكون الإنسان بالمعنى الحقيقى إلا إذا ارتفع فوق شهواته وأهوائه وإرادته .

وعلى الإنسان أن يتقبل واقع الحياة بالرضا .

﴿ **لكي لا تَأسَوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾ [سورة الحديد ، الآية : ٢٣] .

والمعنى الحقيقى للحرية هو تقبل الشدائد مليئاً بالثقة فى الله تبارك وتعالى ووجود الإنسان نفسه له هدف وغاية :

﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عَبَثاً وأنكم إلينا لاترجعون** ﴾ .

[سورة المؤمنون ، الآية : ١١٥] .

﴿ أيحسبُ الإنسانُ أن يُتْرَكَ سُدى ﴾ [سورة القيامة ، الآية : ٣٦] .

والقيم الأخلاقية من الثوابت ، وهى لاتتطور كما يتطور الجسد أما القول بأنه ليس فى الطبيعة شىء ثابت مقولة مضللة هناك الثوابت والمتغيرات فى الطبيعة وفى المجتمع .

إن أسلمة العلوم الاجتماعية والإنسانية وأسلمة المعرفة ضرورة لابد من تحقيقها إذا شئنا التغلب على أزمة الفكر على أساس تكامل المنهج العقلى مع المنهج الشرعى فى فهم النصوص وتوجيهاته فى مجال العلاقات الإنسانية وتطبيقاتها .

حيث يتميز الفكر الإسلامى بالشمولية بينما تقوم المذاهب الفلسفية الغربية على التجزئة وتتمثل شمولية الإسلام فى نظام الأسرة والمرأة وعلاقات العمل والتكافل الاجتماعى والترابط الكامل المباشر بين مجال العلوم السلوكية ومجال التربية .

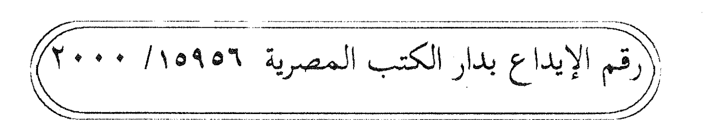
هـذا وبالله التـوفيـق

أنور الجندى

★ ★ ★

فهرس الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١٥٩٥٦/ ٢٠٠٠


دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ ـ شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ـــ ١١٢٣١